نحو تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

جزيرة العرب

الجزء الأول

سيرة هود وصالح وشعيب وسليمان عليهم السلام
وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود
الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الوفاء للطباعة والنشر

جَزِيرَةُ العَرَب

الجزء الأول

الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

جَزِيرَةُ العَرَب

الجُزْء الأَوَّل

سيرة هود وصالح وشعيب وسليمان عليهم السلام
وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع . المنصورة . ش . م . م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيماً ﴾ « صدق الله العظيم » . ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة فجزاه الله عن الأمة الإسلامية خير ما جازى نبياً عن أمته .

أما بعـــد :

فإن تاريخ الأمة المسلمة تاريخ عريق يضرب بجذوره فى أعماق الزمن ، ويمتد لبضعة آلاف من السنين على الأقل ، وعلى أرض الجزيرة العربية التى حرص رسول الله محمد ﷺ أن تتطهر من رجس اليهود والنصارى(١) – عاشت أجيال كثيرة من أبناء هذه الأمة المسلمة .

وعلى أرض الجزيرة العربية ، درج رسل كرام : هود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسماعيل – عليهم السلام – وعلى أرض الجزيرة بعثوا ؛ وعليها كان يتنزل جبريل من السماء إلى الأرض ، يحمل التكليف الإلهى لهؤلاء الرسل لدعوة الناس إلى دين الإسلام .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » ، رواه البخارى « باب الجزية » ومسلم الوصية . وأبو داود .
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، جـ ٢ ، مطبعة بريل ١٩٤٣ ، ص ٢٢ ؛ وفى رواية لمسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما ، مختصر صحيح مسلم ، ص ٣٠٨ حديث رقم ١١٥٣ .

وعلى أرض الجزيرة قام الرسل جميعا يدعون إلى عقيدة واحدة : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » ويدعون إلى إخضاع الحياة برمتها لنظام الله - عز وجل - وشرعه ، فاستجاب من استجاب ... وكفر من كفر ، وهلك من هلك عن بينة ، ونجا من نجا عن بينة .

هذه الأرض الطيبة - أرض الجزيرة العربية - قد اختصها الله - سبحانه وتعالى - بفضله دون بقاع الأرض جميعا ، فجعل فيها حرمه الآمن وبيته العتيق ، ومكة المكرمة - أحب بقاع الأرض إلى الله - التى جعلها الله مناسك لعباده ، وأوجب عليهم الإتيان إليها من القرب ومن البعد ، من كل فج عميق ؛ فلا يدخلونها إلا متواضعين متخشعين متذللين كاشفى رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا . وجعلها حرما آمنا ، لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد ، ولا يختلى خلاءٍ ولا يلتقط لقطته إلا للتعريف ، وجعل الله سبحانه وتعالى قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ، ما حيا للأوزار ، حاطا للخطايا ، كما بين ذلك محمد ﷺ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ، ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة »[١] .

ولقد تعرض تاريخ الجزيرة العربية للتشويه والتزييف والتحريف على أيدى المستشرقين اليهود والنصارى والملحدين ، يعاونهم عدد كبير من أبناء العرب والمسلمين ، فحرفوا تاريخ الأنبياء والرسل الذين كان لهم شرف البعثة على أرضها .

كما تعرض تاريخ الدعاة - الذين كان لهم شرف رفع راية التوحيد على أرض الجزيرة - وصحابة محمد ﷺ ، للتزييف والتشويه ، وقبل ذلك كله نال تاريخ الدين الإسلامى القسط الأكبر من التجاهل والتجهيل والتزييف والتشويه . فإذا أراد الدارس المسلم وغير المسلم ، أن يتعرف على التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة التى عاشت على أرض الجزيرة العربية ، فلا يكاد يجد مرجعا واحدا من المراجع التى كتبت فى القرن الأخير يعينه على تحقيق رغبته فى الدرس والتحصيل .

---

(١) رواه الشيخان .

ولا يعنى ذلك أنه ليس هنالك مراجع مكتوبة عن الجزيرة العربية ؛ على العكس ما كتب شيء كثير ، لكنه ليس من التاريخ الحقيقى فى شيء .

فإذا استفتى الدارس ، مرجعا عن تاريخ هود وصالح وشعيب ، فسيقرأ أنه خرافة وأسطورة تسبق التاريخ الحقيقى للجزيرة العربية[١] .

وإذا أراد الدارس أن يحصل على معلومات عن مكة المكرمة يجد أنها تاريخ خرافى أسطورى[٢] ، غير صحيح .

وإذا أراد أن يحصل على معلومات عن إبراهيم وإسماعيل ، فإنه يجد أنهما — فى مرجع — شخصيتين غير حقيقيتين[٣] ، وفى مرجع آخر هو شخصية حقيقية ولكنه أبو اليهود ، وعن دينه انبثقت اليهودية والنصرانية[٤] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن وصول هاجر وإسماعيل وإبراهيم إلى جوار بيت الله العتيق ، فسيقرأ بأنه ليس من المعقول أن يترك إبراهيم زوجه وابنه بواد غير ذى زرع[٥] .

وإذا أراد القارىء أن يعرف شيئا عن تاريخ الحج فسيقرأ أنه عادة عربية قديمة وثنية[٦] ، لعلها ظاهرة عن عبادة الشمس أخذها محمد ﷺ وجعلها من العبادات فى الإسلام .

وإذا أراد القارىء أن يعرف شيئا عن زمزم فسيقرأ : أن هاجر قد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ١٥ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٤ .

(٢) تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ؛ الاتجاهات الوطنية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) الاتجاهات الوطنية ، ص ٢٩٩ .

(٤) سياسة الاستعمار والصهيونية ، جـ ١ ؛ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ص ٦٢ .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين ، جـ ، ص ٣٤٣ ، ص ٣٦٠ — ٣٦٢ ؛ ولقد أفردنا رسالة خاصة لسيرة إبراهيم عليه السلام .

(٦) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٧ ؛ تاريخ العرب المطول ، ص ١٨٥ .

اكتشفت زمزم[١] ، وأن كثرة الشرب من مائها يؤذى شاربه[٢] ، وأن ماءها غليظ كان يخلط باللبن والعسل لتخفيفه[٣] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن حقيقة الدين الذى دعا إليه الرسل الكرام فسيقرأ أنه عبارة عن خليط من اليهودية والنصرانية ، والعقائد الجاهلية[٤] ، وأنه من اختراع العقل البشرى .

وإذا أراد الدارس أن يعرف من هم الأحناف[٥] ، ويتتبّع أخبارهم فسيجد من يقول أنهم المنحرفون عن العبادة العامة[٥] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف حقيقة العلاقة التى كانت بين ملكة سبأ وسليمان – عليه السلام – فسيقرأ أنها كانت علاقات غرامية[٦] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن حقيقة الأوضاع الفكرية والعقيدية قبل دعوة الرسول، فسوف يقرأ أن الأوضاع الجاهلية تشكل الركيزة التى قام عليها الإسلام[٧] .

وإذا أراد الدارس أن يعرف شيئا عن أصحاب الأخدود مثلا وموقف الدولة الحميرية منهم فسوف يقرأ أنهم كانوا مسيحيين[٨] ، وأنهم كانوا حريصين على قلب نظام الحكم لدولة حمير ولهذا كانت مذبحتهم .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، جـ ٩ ، ط ٣ ، ص ٣٥٤ .

(٢) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢٠ .

(٣) تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام ، ص ٢١٩ .

(٤) موسكاتى ، الحضارات السامية القديمة ، ص ٢٠٨ ؛ حضارة العرب ؛ ص ١٨ ؛ قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ٤ ، ط ٢ ، ص ٢٣ – ٢٤ ؛ الدعوة إلى الإسلام ، ص ٥٢ ؛ تاريخ العرب العام ، ص ١٣ ؛ تاريخ العرب المطول ، جـ ١ ، ط ٣ ، ص ٨١ ، ١٧٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ؛لفظة حنيف .

(٦) سليمان الحكيم تأليف توفيق الحكيم ؛

(٧) محاضرات فى تاريخ العرب ، ص ١٢٢ – ١٢٤ ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٥ .

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٦١ – ٦٢ .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن محمد ﷺ ، قرأت أنه مصلح ، مدعى نبوة ، مؤسس دين[١] ، متهوس[٢] ، غدار[٣] ... إلى غير ذلك .

وإذا أردت أن تعرف شيئا عن القرآن الذى أنزل عليه أجابوك أنه من تأليف محمد أخذاً عن التوراة والأناجيل المحرفة والأمثال السامية القديمة والأخبار العربية[٤] . وأنه تاريخ مقلوب[٥] .

وإذا بحثت عن الإسلام فى كتبهم ، لا تجد له وجودا قبل بعثة محمد ﷺ ، وإذا سألتهم عن أصل الإنسان قالوا لك : أنه من سلالة الحيوان[٦] ، وإذا سألتهم عن الدين قالوا لك : أنه من اختراع العقل البشرى[٧] ، إلى غير ذلك من الأباطيل التى تمتلىء بها المراجع التاريخية التى تمتلىء بها المكتبات فى بلاد المسلمين .

وقد نجم عن هذا أن أصبحت البشرية عامة والأمة الإسلامية على وجه الخصوص تنظر إلى نفسها وسواها بعدسة صنعتها أيد أجنبية عنها ، أجنبية عن عقيدتها وتاريخها ... ، أجنبية عن مشاعرها وإدراكها ... أجنبية عن اهتمامها بالأمور وإحساسها بالحياة وتقدير الأشياء ، ثم هى بعد ذلك كله مغرضة - فى الغالب - تبغى لها الشر لا الخير ... لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية ، كلها تدفع بها دفعا لأن تبغى الشر للأمة المسلمة ، لأن خير الأمة المسلمة لا يتفق مع أطماعها ، ولأن استقامة الأمة المسلمة ، تحول بينها وبين التسلط على بنى البشر[٨] .

---

(١) حضارة العرب ، ص ١٨ ؛ تاريخ العرب العام ، ص ١٣ .

(٢) حضارة العرب ، ص ٢٧ .

(٣) قصة الحضارة ، م ٤ ، جـ ٢ ، ط ٢ ، ٤٥ .

(٤) تاريخ العرب المطول ، ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٥) قصة الحضارة ، جـ ٢ م ٤ ، ط ٢ ، ص ٥٠ - ٥٢ .

(٦) معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الأول ؛ تاريخ العالم ، المجلد الأول ؛ موسوعة تاريخ العالم ، المجلد الأول .

(٧) نفس المراجع السابقة ، تطور الفكر والدين ؛ ديانة مصر القديمة ، ص ٤ .

(٨) فى التاريخ ، فكرة ومنهاج .

كما أن أخطاء المنهج غير الإسلامى ، الذى اتبع فى كتابة تاريخ البشرية وتاريخ الأمة المسلمة ، كانت كفيلة ، بأن تشوه الحقائق التاريخية - وخاصة من ناحية العقيدة السليمة والدين الصحيح الذى ارتضاه الله للبشرية - فى غير صالح الأمة المسلمة .

وهذه جريمة ترتكب فى حق الأمة المسلمة ، التى من صالحها أن ترى حقيقة دورها فى تاريخ البشرية ، وأن تعرف مكانتها فى خط سير التاريخ ، وأن تتبين قيمتها فى العالم الإنسانى . وليست فائدة هذا فائدة نظرية فكرية مجردة ، بل إنَّها أكبر من ذلك وأشمل ، فعلى ضوئها يمكن للأمة المسلمة أن تحدد موقعها الحاضر ودورها فى المستقبل ، وأن تسير فى أداء هذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف والعوامل العالمية المحيطة بها ، بعد ما تتخذ من الوسائل والأسباب اللازمة لمواجهة هذه الظروف وتلك العوامل .

والمؤسف حقا ، أن دور العلم ، التى أنشئت أساسا ، لتربية الشباب المسلم ، الأساس الضرورى لبناء الأمة المسلمة ، دأبت على تلقين الأجيال تاريخا إسلاميا مشوها ، وتاريخا جاهليا ضخما ، لا عن مجرد خطأ غير مقصود ، ولكن عن نية خبيثة من الاستعمار الغربى والصليبية والصهيونية العالمية التى يهمها أن لا تجد الأمة المسلمة فى تاريخها ما تعتز به ، وأن ترى أوروبا - كنموذج للجاهليات - على العكس ، هى صاحبة الدور الأول فى التاريخ الإنسانى . فإذا يئست الأمة المسلمة من ماضيها بعد أن استعرضت دورها فى حياة البشرية . وامتلأت نفوسها إعجابا بالدور الذى قامت به أوروبا ، وإكبارا وإجلالا للرجل الأبيض ، سهل قيادها على الاستعمار وذلت رقابها له .

ولذلك فإنه وضعا للأمور فى نصابها ، لابد من عرض تاريخ الجزيرة العربية بعد تنقيته من الأخطاء التى ألحقها به كتاب التاريخ من المستشرقين ومن سار على نهجهم .

لإثبات الدور الذى أداه الإسلام والأمة المسلمة منذ رسالة نوح عليه السلام إلى زمن رسالة محمد ﷺ والدور الذى لعبته الجاهليات ومنها الجاهلية العربية بعد ما يضور طبيعة الدين الإسلامى وطبيعة النظام الذى ينبثق منه ومدى

ما منح البشرية من الخير والتقدم . وضخامة الدور الذى أداه لبنى الإنسان .

وسوف يكون لهذا التصحيح قيمة فى حساب المصلحة الإنسانية العامة ، فكم لأخطاء التاريخ من أثر فى إقامة الحواجز بين بعض الأمم وبعض العناصر وبعض الكتل ، وكم لها من أثر فى سوء تقدير الجماعات للجماعات والأجناس للأجناس والأفراد للأفراد والعقيدة والمبادىء والحضارات ، وكل هذا يؤذى البشرية فى حاضرها ويؤذيها فى مستقبلها .

كما أنَّه من حق البشرية الضالة اليوم أن تحصل على صورة صحيحة لتاريخ البشر على الأرض ومن الإجرام فى حقها تزوير ذلك التاريخ ، وإعطائها معلومات مضللة وخاصة فى مجال العقيدة . ومن الأمانة العلمية أن يمتنع من يسمون بالعلماء ، وخاصة الذين يرسمون للناس صورة القرون الخوالى ، عن تقديم كتابات يعلمون أنها غير صحيحة ، كما أنه من واجب القادرين إزالة أخطاء التاريخ وإزالة آثارها وتصحيحها التصحيح الواجب لأنه ليس من مصلحة الإنسانية أن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها . وأن تسودها فكرة خاطئة عن ماضيها وحاضرها ، وأن تجهل الدوافع الكاملة لسيرها وتحركها ، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها ، لأن هذا الجهل لينشىء أخطاء عميقة الأثر لا فى التصور والتفكير فحسب ، ولكن فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفى علاقات الكتل الدولية بعضها ببعض ، كما ينشىء أخطاء بعيدة المدى فى تكييف سياسة كل أمة وتوجيهها ، هذه الأخطاء ينشأ معظمها عن سوء دراسة التاريخ البشرى وسوء تقدير الدور الذى قام به الإسلام والذى يمثله العالم الإسلامى ، هذا العالم الذى يمثل وحدة إنسانية شاملة لها كل خصائصها المستقلة ويمثل قوة إنسانية ثابتة لا يؤثر ضعفها العسكرى الطارىء إلا تأثيرا عارضا فى وزنها الحقيقى .

على أن يوضع فى الاعتبار أن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم صاحب عقيدة سليمة ، أى أن يكون له عقلية إسلامية فى صميمها ، مشربة بالروح الإسلامية ، لكى تدرك العناصر الأساسية فى الحياة وتحسها وتتجاوب معها ، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير للحكم على هذه

الحياة ... وبذلك يمكن للحياة الإسلامية أن تعطى كل أسرارها وأشعاعاتها ، وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

إن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم يعيش بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام ؛ .... حتى يستطيع إدراك الحياة البشرية فى ظل العقيدة الإسلامية ، إدراكا حقيقيا داخليا متجاوبا معها بكل ذاتيته ، عائشا فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها ....

إن التصحيح لا يمكن أن يطلب إلا من باحث مسلم درس الحياة الإسلامية ، وأدرك إدراكا كاملا روح العقيدة الإسلامية وطبيعة الفكرة الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ، وأدرك أيضا طبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة بل وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل العقيدة .

* * *

الفصـــل الأول

المصادر والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة وكتابة أخبار القرون الأولى من حياة الجزيرة العربية :

أولا : مصادر أساسية :

(أ) القرآن الكريم ، وما يتصل به من كتب التفسير مثل :

١ – جامع البيان عن تأويل آى القرآن[١] ، تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) .

٢ – الجامع لأحكام القرآن ، تأليف أبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، دار إحياء التراث العربى بيروت (ت ٦٧١ هـ) .

٣ – تفسير القرآن العظيم ، تأليف إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ) .

٤ – ويدخل فى ذلك الكتب التى تبحث فى أسباب نزول السور والآيات ، مثال :

– أسباب النزول ، تأليف أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى (ت ٤٦٨هـ) ؛ والكتب التى تذكر الآيات الناسخة والمنسوخة ، مثال : الناسخ والمنسوخ ، تأليف ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦ هـ) .

(ب) حديث النبى محمد ﷺ وما يتصل به من شروح[٢]، ومجاميع الحديث كثيرة منها :

---

(١) وهو تفسير تاريخى يفسر الآيات بذكر الأحوال التاريخية والاجتماعية التى رافقت نزول الآيات ، وقد نحى الطبرى المؤرخ فى التفسير منحى يتلخص فى استقراء جميع روايات الحديث وروايات التاريخ وروايات الآداب التى وردت فى تفسير الآيات ، ثم يفاضل بين تلك الروايات ويرجح ما يراه فى نظره أقرب إلى الواقع ، مما لا يعارض نص القرآن . وابن جرير يسلك فى التفسير مسلكا سلفيا .

(٢) والحديث هو الأقوال التى رويت عن محمد ﷺ. وقد وصل الحديث إلينا نقلا عن رسول الله=

- صحيح أبى عبد الله البخارى (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) .
- صحيح مسلم (٢٠٤ - ٢٦٨ هـ) .
- سنن أبى داود (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) .
- والموطأ للإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) .
- ومسند الإمام أحمد بن حنبل .
- سنن الدارمى (ت ٢٢٥ هـ) .
- سنن الترمذى (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)
- سنن النسائى (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) .
- سنن ابن ماجه (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ) .
- صحيح الجامع الصغير وزيادته تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ بيروت ١٤٠٢ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة تأليف محمد ناصر الدين الألبانى . ط ٣ ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ .

ومن الشروح :

- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، تأليف أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) .

=نقله أصحابه عنه، ثم أدوه إلى الجيل الذى خلفهم، وأهل هذا الجيل أدوه إلى من تلاهم ، جيلا بعد جيل ، حتى وصل إلى الذين دونوه . وللحديث سند يجب أن يكون متصلا وأن يكون كل راو قد عرف الذين روى عنهم . كما يجب أن يكون جميع رجال السند (جميع هؤلاء الرواة) ثقاتا مشهودا لهم بالإيمان والصدق والعلم والنزاهة .. على أن الاستيثاق فى رواية الحديث ، بصحة الرواية وحدها لا يكفى ، يجب أن يكون للمحدث ، أى للعالم الذى يحفظ الحديث ويحدث به الناس دراية (وهى علم بالأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ فيما يتعلق بمعناها ، وألفاظها وبالأحوال التى قيلت فيها ، وبالغرض المقصود منها يوم قولها) . وقد يكون الحديث صحيحا ثابتا عن رسول الله ﷺ ولكنه منسوخ - أى أبطل العمل به فى زمن رسول الله ﷺ نفسه - فعلى المحدث إذن أن يكون جامعا بين صحة الرواية فى الحديث وبين سعة الدراية به وبالأحوال الملابسة له . هذه الأصول فى الاستيثاق من صحة الحديث تُعرف عند العلماء المسلمين باسم « مصطلح الحديث » (انظر علوم الحديث ومصطلحاته ، تأليف د. صبحى الصالح ، ط ١٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٩٨ .

– صحيح مسلم بشرح النووى ، تأليف يحيى بن شرف النووى .

وللحديث الشريف أيضا ناسخ ومنسوخ منها :

– الاعتبار فى بيان الناسخ والمنْسوخ من الآثار ، تأليف محمد بن موسى الحازمى (٨٥٤ هـ) ، حيدر آباد .

ثانيا : المصادر الثانوية :

(أ) كتب التاريخ عند العرب منها :

١ – تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة .

٢ – البداية والنهاية ، لإسماعيل بن كثير القرشى .

٣ – الكامل فى التاريخ لابن الأثير .

٤ – العبر ، لابن خلدون .

(ب) كتب الجغرافية ، منها :

– صفة جزيرة العرب للهَمْدانى .

– معجم البلدان لياقوت الحموى .

(جـ) الأدب العربى قبل بعثة محمد ﷺ ، ويشمل الشعر والنثر الذى وصل إلينا مرويا عن ذلك العصر ، وقد تأخر تدوينه ، كما أن رواته لم يحرصوا على ضبطه وصحته .

١ – من دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة : ديوان أمية بن أبى الصلت .

٢ – من مجاميع النثر :

– أمثال العرب للضِّبى .

– المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى .

– جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت .

(د) كتب اللغة العربية :

١ – القواميس العربية ، والقاموس العربى ليس للمفردات اللغوية فحسب بل هو

فى الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والعملية والفنية . ومن أجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ومعاجم اللغة خاصة مصادر مهمة للحياة لعصر ما قبل رسالة محمد ﷺ . ومنها :

(أ) تاج العروس للمرتضى الزبيدى .

(ب) لسان العرب لابن منظور .

(ج) القاموس المحيط للفيروز آبادى .

٢ - كتب فى اللغة ، تجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، مع الاستطراد إلى الأدب والجغرافية والتاريخ والاجتماع منها :

(أ) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى .

(ب) أنساب الخيل فى الجاهلية والإسلام لأبى المنذر هشام بن أحمد الكلبى.

٣ - كتب النحو . مثال :

- المفصل للزمخشرى .

* * *

الفصـــل الثانى

الجـزء الأول

قـــوم عـــاد
وسيرة هود عليه الســـلام

من هم عاد ؟ ومن هو هود ؟ – عليه السلام – وإلى من ينتسبون ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن أين أتوا ؟ ما مدى التمكين الذى تحقق لهم فى أرض الله ؟ وهل قامت لهم دولة ؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم الفكرى والعقدى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى ؟.

ما هى مصادر[1] ومراجع معلوماتنا، عن هود عليه السلام وقومه عاد ؟ وما هى الاستفادة التى يمكن أن تعود على الدارس لتاريخ عاد وسيرة نبيهم هود عليه السلام ؟

أسئلة كثيرة تدور فى ذهن الراغب فى التعرف على تاريخ العاديين وسيرة النبى الذى بعث فيهم وهو هود عليه السلام .

وسنحاول – بإذن الله – اعتمادا على الله ثم على ما بين أيدينا ، من مصادر موثقة الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الاستطاعة ، دون أن نتطرق إلى محاولة إدراج أى من الافتراضات التى لا تعتمد على وثائق صحيحة ، توفيرا لجهد القارىء والباحث ، حتى ينصرف إلى ما يفيده فى دنياه وأخراه .

---

(١) القرآن الكريم ، الأعراف ٦٥ – ٧٢ ؛ هود ٥٠ – ٦٠ ؛ الشعراء ١٢٣ – ١٤٠ ؛ فصلت ١٥ – ١٦ ، الأحقاف ٢١ – ٢٦ ؛ الذاريات ٤١ – ٤٢ ؛ القمر ١٧ – ٢١ ؛ جامع البيان عن تأويل أى القرآن ؛ تفسير القرآن العظيم ؛ البداية والنهاية .

حرص المستشرقون « اليهود والنصارى » ومن سار على نهجهم ، وهم يعرضون تاريخ بنى آدم ، على تجاهل سيرة النبيين هود وصالح عليهما السلام ، واعتبروهما من التاريخ الأسطورى الذى يسبق التاريخ الحقيقى للجزيرة العربية ، وهم بذلك يتبنون المنهج التوراتى اليهودى - المزيف - الذى يتجاهل سيرة هذين النبيين الكريمين .

وانطلاقا من هذا المبدأ فقد ذهب الكتاب إلى التشكيك فى كون « عاد » و « ثمود »[1] قد وجدوا أصلا فى الجزيرة العربية ، كما ذهب بعض أولئك الكتاب إلى التشكيك أيضا فى كون « عاد »[2] عاشوا فى جنوب الجزيرة العربية ، وكون ثمود قد عاشوا فى شمال الجزيرة العربية ، متجاهلين بذلك ما ورد عن عاد وثمود فى المصادر الإسلامية ؛ وخاصة القرآن الكريم .

---

(١) يعتبر محمد مبروك نافع فى كتابه « تاريخ العرب » ، عصر ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ م ص ٣٠ - ٣١ عادا وثمود من العرب البائدة «الذين بادوا وانطمست معالم أخبارهم منذ ما قبل الإسلام»، ويقول : « وإن جمهرة المستشرقين يعتقدون أن ما يسمى العرب البائدة (ومنهم « عاد » و « ثمود ») ليس من التاريخ الحقيقى فى شيء ، إنّما هو جزء من الميتولوجيا العربية أو التاريخ الأسطورى الذى يسبق عادة التاريخ الحقيقى لكل أمة ، وهم إذا عالجوا تاريخ بعض قبائل العرب البائدة فى كتبهم فإنّما يعالجونها على هذا الأساس فحسب » . ويذهب نفس المذهب ، ل . أ . سيديو فى كتابه تاريخ العرب العام ، القاهرة ١٣٨٩ هـ ، ص ٣١ ؛ و و ل . ديورانت فى كتابه قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ٣ ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص١٧١ ، وجورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، ص ٧٢، ٧٥ - ٧٦؛. وكذلك دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ١٥ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ التى تقول نصا : « هل وجدت حقا أمة تسمى عاد وفى أى مكان عاشت ؟ فلا تزال بلا حل . وأنساب قوم عاد التى قال بها العرب لا قيمة لها بطبيعة الحال وكذلك قولهم بأن هؤلاء كانوا ينزلون الصحراء البلقع ، بين عمان وحضرموت » ، « ويعتبر فلهاوزن عاداً أمة أسطورية » .

(٢) زعم بعض المستشرقين أن قوم عاد كانوا يسكنون شمال غرب شبه الجزيرة العربية ومن هؤلاء « إشبرنجر » A. Sprenger فى كتابه « جغرافية (جزيرة) العرب القديمة ، ص ٢٠٧ ؛ وفورستر C. Forster فى كتابه الجغرافية التاريخية لجزيرة العرب ج ٢ ، ص ٣٢ . وهذا ما زعمه الأثريون نتيجة الحفائر التى أجروها هورسفيلد ، سافينياك ، وجليدن ، فزعموا أن مكان عاد كان فى جبل « رم » على بعد ٢٥ ميل إلى الشرق من العقبة . انظر دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) فى بلاد العرب تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٢٤٣ - ٢٤٩ ؛

كما حرص كتاب التاريخ المحدثين على ترديد التقسيمات التى وردت فى التوراة وكتب بعض الإخباريين ، والتى تجعل العرب طبقات ، وتجعل عادا وثمودا من القبائل العربية البائدة :

وطبقات العرب كما ترددها كتب التاريخ :

(أ) عرب بائدة ومنها عاد وثمود . وإن كان ابن كثير يعتبرهم من العرب العاربة ، (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ - ١٣٠) .

(ب) وعرب باقية ، وتنقسم إلى قسمين :

أولا: عرب الجنوب (اليمن) وهم العرب العاربة أو العرباء أو القحطانية نسبة إلى يعرب بن قحطان بن عابد من سلالة نوح عليه السلام .

ثانيا: عرب الشمال (الحجاز ، وتسمى العرب المستعربة أو المتعربة أو العدنانية نسبة إلى معد بن عدنان[١] من سلالة إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -. ثم يتبعون هذه التقسيمات[٢] بعض التحليلات والتفسيرات لخدمة المخطط الاستشراقى ؛ منها : ما قاله محمد مبروك نافع ، ترديدا لأقوال المستشرقين تفسيرا لكلمة « بائدة » : « بأنهم (بادوا) وانطمست أخبارهم » . مع العلم ، بأن القرآن الكريم قد حفظ لنا أخبار عاد وثمود تفصيلا - أى أن أخبارهم لم تطمس . والمستشرقون يهدفون بذلك إلى التشكيك فى القرآن معجزة الإسلام ، على اعتباره أنه المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن هؤلاء الأقوام .

ومنها أيضا التشكيك فى عروبة إسماعيل ففى زعمهم ، أن إسماعيل ليس عربيا أصيلا ، ولكنه من العرب المستعربة أو المتعربة ، الذين اكتسبوا اللسان العربى ، وبالتالى فإنهم يريدون أن يصلوا من وراء ذلك إلى أن محمدا ﷺ ليس عربيا خالصا ، فهو غريب عن العروبة .

---

(١) سلسلة النسب من عدنان إلى إسماعيل محل خلاف بين المؤرخين ، مع الاتفاق على أن عدنان ينتهى نسبه إلى إسماعيل . ويروى أن النبى ﷺ إذا انتسب لم يتجاوز عدنان .

(٢) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ، جورجى زيدان ، العرب قبل الإسلام .

والإخباريون لم يقصدوا بتقسيماتهم ما زعمه المستشرقون ومن سار على نهجهم من تفسيرات ، فالدارس المسلم له أن يرفض هذه التفسيرات الاستشراقية ، خاصة أنها تخدم الباطل الذى يهرف به الكتاب الذين يمقتون الإسلام وأهله ، ويمكننا بإذن الله فى نفس الوقت أن نقدم تفسيرا لتقسيمات الإخباريين ، لن يكون مجافيا للصواب ، ولا تأباه معانى اللغة العربية ، وبه قال المفسرون ، فكون المؤرخين قد ذكروا عن عاد وثمود أنهم من العرب البائدة فهذا صحيح ، ولكنهم لا يقصدون المعنى الذى ذهب إليه المستشرقون وأعوانهم ، بل يقصدون أن الله عز وجل لم يجعل للكفار منهم خلفا وأبادهم عن آخرهم لكونهم كفروا بالله - عز وجل - ولأنهم لا يلدوا إلّا فاجرا كفارا ؛ ولكن ظلت أخبارهم عالقة بأذهان العرب ، كما أن الله قد حفظها لنا فى قرآن يتلى إلى يوم الدين . والدليل على ما نذهب إليه قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾[1] . يقول المفسرون : أى هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفا[2] . كما أن أخبار عاد وثمود التى وردت فى القرآن تؤكد هذا المعنى ، وتأبى التفسير الاستشراقى ، أى أن الذين بادوا هم الذي كفروا ، أما الذين آمنوا فقد شملهم الله برحمته ، أى أن الإبادة الكاملة لم تحدث إلا للكافرين من قوم عاد : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

أما مسألة التشكيك فى عروبة إسماعيل عليه السلام ، فليس من المتصور أن الإخباريين المسلمين يقصدون إلى ذلك ، وهم يعلمون أن كل من تحدث بالعربية فهو عربى[3] .

---

(١) الحاقة : ٤ - ٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ .

(٣) عن أبى هريرة - يرفعه- قال « من تكلم العربية فهو عربى . ومن أدرك له اثنان فى الإسلام فهو عربى » . =

كما أن أصول الإسلام تأبى هذا التفسير الذى أعطاه كتاب التاريخ المستشرقين ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين كما سنبين فيما بعد .

إذن يمكن القول بيقين :

بأن أخبار عاد ورسالة هود – عليه السلام – فيهم ، وأخبار ثمود ورسالة صالح – عليه السلام – فيهم ، هى من التاريخ الحقيقى ،وليست من التاريخ الأسطورى ، وإنكار هذه الأخبار وتلك الرسالات من المسلمين يمس الاعتقاد الصحيح لهم ، لأن المسلمين مطالبون بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾[1] . كما أن إنكار أخبار تلك الأمم والرسل الذين بعثوا فيهم يقوم على منهج معاد للإسلام يهدف إلى تشكيك الأمة المسلمة فى دينها وقرآنها .

إذن أين كانت تسكن عاد وهود عليه السلام ؟ ومن أين أتوا ؟ وإلى من ينتسبون ؟ :

لقد تبين لنا أن نواة المجتمع البشرى المسلم الأول تمثلت فى آدم وزوجه وبنيه الذين تناسلوا وتكاثروا وواصلوا تعميرهم للأرض التى استخلفهم[2] الله فيها ، وفى هذه الأثناء كان الشيطان وحزبه يباشرون نشاطهم لاجتيال آدم وبنيه عن دينهم ، واستمر الصراع بين حزب الشيطان وحزب الرحمن ، حتى جاء الوقت الذى نجح فيه حزب الشيطان من اجتيال عدد كبير من أبناء آدم عن دينهم وهو الإسلام ، فأرسل الله – سبحانه وتعالى – نوحا إلى الناس يدعوهم

= وعن رسول الله ﷺ : أيها الناس ، إنَّ الربَّ ربّ واحد ، والأبَّ أبّ واحد ، والدين واحد ، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم . إنما هى لسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربى » (انظر اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) ، مطابع المجد التجارية ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) تاريخ الأمة الواحدة المسلمة ، للمؤلفين (تحت الطبع) دار الوفاء .

إلى العودة إلى دينهم وربهم[1] ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[1] .

وقد استجاب لنوح بعد تسعة قرون ونصف من الدعوة إلى الله ، عدد قليل من قومه ، أعلنوا إسلامهم لله – عز وجل – بينما كفرت الغالبية العظمى من أفراد الأمة ، فأرسل الله الطوفان ، واستأصل شأفة الكافرين من قوم نوح من على وجه الأرض المعمورة فى ذلك الزمان ، وهى المنطقة – وهذا احتمال – التى تقع فى إيران والعراق حاليا[2] .

وبعد إهلاك الكافرين من قوم نوح – عليه السلام – صدرت الأوامر الربانية إلى الأرض والسماء : ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء وقُضِىَ الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ .

ونزل نوح ومن معه من المؤمنين فى أرض السواد والجزيرة « أرض سومر » ، وأقاموا بها ما شاء الله لهم أن يقيموا ، وكانوا على الإسلام .

وكان لنوح – عليه السلام – بالمدينة أبناء هم : سام وحام ويافث ، تفرقوا فى الأرض بعد الطوفان ، فذهب الأول إلى جنوب جزيرة العرب

---

(١) يونس : ٧١ – ٧٢ وقد قدر المؤرخون المسلمون الفترة الزمنية التى كانت تفصل بين آدم ونوح بعدة آلاف من السنين ، (كانت عشرة أجيال على الأقل) كلهم على الإسلام كما بينا اعتمادا على الحديث الصحيح عن محمد رسول الله ﷺ (قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا محمد بن عمر بن يوسف حدثنا محمد بن عبدالملك بن زنجوبة حدثنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله أنبى كان آدم ؟ قال : نعم مكلَّم. قال فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : (عشرة قرون) . يقول الحافظ ابن كثير . وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٠١).

(٢) والتى كانت تسمى قديما مركز إقليم عيلام (أرض السوس) وأرض الجزيرة والسواد ، دلتا دجلة والفرات ، على اعتبار أنه قد عثر فى أرض السوس على أقدم حضارة إنسانية متقدمة على سطح الأرض عمرها – حسب تقدير المشتغلون بالأبحاث الأثرية – عشرون ألف عام .

(اليمن) ، وذهب الثانى إلى أفريقية واستقر فيها ، وذهب الثالث إلى أوروبا وعاش فيها[1] .

---

(١) نخلص إلى هذه النتيجة من حديث رسول الله ﷺ ، صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢١) .

والحديث الآخر لرسول الله ﷺ . قال الإمام أحمد حدثنا عبدالوهاب ، عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال : « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم » ، (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١١٥) كما أن المؤرخين المسلمين دائما يرجعون نسب عاد وثمود إلى نوح عليه السلام . ولقد أقام المستشرقون اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، دراسات عرقية وجنسية تستغل هذا التقسيم ، اعتمادا على التوراة المزيفة ، وتجعل الأفضلية لسام على حام ، وتجعل الأخير وأبناءه عبيدا للأول ، لخدمة قضايا اليهود التى تجعلهم شعبا لله مختارا ، وتجعل من دونهم حميرا . هذه الدراسات تدخل تحت اسم الأنثروبولوجى والأثنولوجى (انظر : تاريخ العالم بالمجلد الأول ، معالم تاريخ الإنسانية ؛ موجز تاريخ العالم ؛ الموسوعة الأثرية العالمية) .

والمنهج الإسلامى للدراسات التاريخية لا يعرف تفاضلا بين أبناء آدم على أساس الجنس أو العرق ، فالكل أصله واحد ، ولا تفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح ، إلا بالتقوى . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إنَّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ . (النساء : ١) ؛ وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنَّ الله عليم خبير ﴾ . (الحجرات : ١٣) .

وقول رسول الله محمد ﷺ : « يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ؛ وقوله ﷺ : « الناس فى الإسلام سواء ، الناس طف الصاع لآدم وحواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بتقوى الله ، ألا هل بلغت ، قالوا نعم ، قال : اللهم فاشهد » ، انظر أيضا اقتضاء الصراط المستقيم ، ص ١٤٤ .

كما أن الأمة الشاهدة لا تنتمى إلى الجنس السامى أو الحامى أو اليافثى ، وإنَّما الأمة الشاهدة هى الأمة المسلمة بدليل قول الله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ، (الحج : ٧٨) .

وبهذا يمكن القول أن المنهج الإسلامى للدراسات التاريخية لا يهتم بقضية الجنس أو اللون ، وإنَّما الذى يهمه بالدرجة الأولى قضية الدين والإيمان والتقوى ، وهى مقياس المفاضلة الحقيقى والصحيح بين بنى آدم عليه السلام .

إذن سام بن نوح قد نزح إلى جزيرة العرب بعد الطوفان . وقد استقر فى جنوبها (اليمن) بأرض يقال لها « الشِّحْر » تشرف على البحر[1] ». قادما ومن معه من أرض السواد والجزيرة (دلتا دجلة والفرات). ومما لا شك فيه أن سام بن نوح كان مسلما موحدا ، وربى أبناءه وأحفاده على الإسلام الذى تلقاه عن أبيه نوح – عليه السلام – عن الوحى عن الله – عزّ وجل – وذلك يعنى ، أن سام ابن نوح هو أبو العرب ، ويعنى أن أول دين عرفته جزيرة العرب هو الإسلام . واستمرت أجيال لا يعلمها إلا الله – فى الجزيرة العربية وغيرها – على الإسلام ، إلى أن نجح الشيطان مرة أخرى فى اجتيال « عاد » أحفاد سام بن نوح عن دينهم (وهو الإسلام) فكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثا ، صدا وصمود وهباء . فأرسل الله لهم رسولا منهم هو هود – عليه السلام – يدعوهم إلى العودة إلى دينهم وتوحيد ربهم وإلههم، ولا يعنى ذلك أن صورة الشرك والوحيدة فى حياة « عاد » هى عبادة الأصنام ، وإنَّما كان له مظهر آخر يتمثل فى التلقى عن غير الله فى شئون حياتهم ، وصد الناس عن دين الله عز وجل .

ونحن حين نقول : أن عادا كانوا يقيمون فى جنوب الجزيرة العربية فإنَّما يأتى ذلك اعتمادا على النص القرآنى الذى يقول : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلَّا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[2] . يقول ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ : « كانوا عربا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال الرمل ، وكانت باليمن : من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشِّحْر ، واسم واديهم مغيث » .

ولا يعنى ذلك أن وجودهم كان محصورا فى هذه البقعة من الأرض ، وهى

---

(١) الأحقاف ٢١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ؛

(٢) الأحقاف : ٢١ .

ليست بالمكان الصغير ، بل ربما امتدت دولتهم لتشمل جنوب وشرق وشمال الجزيرة العربية ، وجنوب فلسطين حيث عثرت على آثار معينية هناك ، إن كان ما ذهب إليه البعض صحيحا من أن دولة معين كانت تقوم على أكتاف العاديين .

ونقُولُ ذلك أيضا اعتمادا على ما قاله أبو الدرداء والذى رواه ابن أبى حاتم وفيه أن « عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا »[1] .

سيرة هـود عليه الســلام

ترد سيرة هود – عليه السلام – فى القرآن الكريم ، وهو مصدر معلوماتنا الوحيد والصحيح عن عاد ورسولهم هود – عليه السلام – أثناء استعراض موكب الإيمان من لدن آدم – عليه السلام – إلى محمد ﷺ . فنرى هودا فى هذا الموكب الكريم يحمل دعوة لا إله إلا الله إلى قومه « عاد » ، يدعوهم وقد التوت بهم الطريق ، وانحرفوا عن صراط الله المستقيم ، وتفرقت بهم السبل تحت ضغط الشهوات ، التى يقودهم الشيطان إليها ، محاولا أن يرضى حقده ، وأن ينفذ وعيده ، وأن يمضى ببنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم .

فإذَا بهود – عليه السلام – يواجه قومه بالهدى ، ويلوح لهم بالنُّور ، ويستروح بهم ريح الجنة ، ويحذرهم لفحات السموم ، ونزغات الشيطان الرجيم ، عدوهم القديم . إن هودا – عليه السلام – حاول إنقاذ قومه « عاد » من الهاوية التى يقودهم إليها الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس ، المستكبرين عن الحق . وخلال هذه المحاولة نلمح الصراع بين الهدى والضلال ، وبين الحق والباطل ، بين الرسول الكريم وشياطين الجن والإنس ، ثم نشهد مصارع المكذبين فى النهاية ، ونجاة المؤمنين الموحدين بعد الإنذار والتذكير .

وعاد ، أمة هود عليه السلام كما عرفنا ، من القبائل العربية التى استخلفت فى جنوب الجزيرة العربية بعد قوم نوح المسلمين الذين نجوا من الطوفان ، بل

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ .

وكانوا من ذراريهم – أى أنهم كانوا من أبناء وأحفاد المسلمين الذين نجوا مع نوح عليه السلام .

هذه الأمة قد مكن الله لها فى الأرض تمكينا كبيرا يتمثل فى الحضارة المادية الكبيرة التى تعكسها لنا المدينة ذات العمد(١) ، التى يقول عنها المولى عز وجل أنها كانت فريدة فى عالمها وعصرها ، ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ . وتتمثل أيضا فى النعم الكثيرة التى من الله بها عليهم ، سواء البنين والأنعام والجنات والعيون ، وكلها مقومات الحياة المادية فى كل عصر ومكان . كما تتمثل أيضا فى إقامة البروج المشيدة ، والمبانى الضخمة ذات المعالم البارزة على الأكمة المرتفعة ، أملا فى الخلود(٢) : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ .

ولكن مع تقدم قوم عاد فى مجال الحياة المادية ، نجد أنهم قد ارتكسوا فى مجال الحياة الروحية ، لقد نسوا عهدهم مع آبائهم وأجدادهم ، بل وعهدهم مع ربهم ، أن يكونوا مسلمين قولا وعملا ، وأن يكونوا موحدين للواحد القهار ...

فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وعبّدوا أنفسهم لرغباتهم وشهواتهم الخبيثة ، ونحّوا شريعة الله عن حياتهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وأنكروا البعث والحساب ، والعقاب والثواب واستكبروا فى الأرض بغير الحق ، ونسوا أن الكبر يحرمهم من هداية الله عز وجل : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون

---

(١) ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ﴾ ، إرم : بيت مملكة عاد ، العماد : أى الأعمدة التى تحمل الخيام . يقول ابن كثير : « من زعم إن إرم مدينة من ذهب وفضة وهى تنتقل بالبلاد فقد غلط وأخطأ وقال ما لادليل عليه ؛ القمر : ٦ – ٨ ؛ البداية والنهاية جـ ١ ، ص ١٢٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٢) يؤكد ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم من أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى : « يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون . إنّه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون . فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا . وأصبحت مساكنهم قبورا ، إلا أن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤١ .

فى الأرض بغير الحق ﴾[١] ونسوا أن الكبرياء رداء الله[٢] – عز وجل – وأنه من نازع الله المتكبر – سبحانه وتعالى – كبرياءه قصمه ولا يبالى ...

ولم يقف طغيان الطبقة المترفة « الملأ من القوم أصحاب الجاه والسلطان والأمر » فى أمة عاد عند هذا الحد ، بل تعداه إلى البطش بالآخرين بطش الجبارين ، بل وتبجحوا بتصورهم أنه لا يوجد من هو أشد منهم قوة ، ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؛ أى أن أمة عاد كانت ترى نفسها مطلقة اليد فى هذا العالم ، الذى كانت تعيش فيه ، وهذا من باب الغرور والاستعلاء ، وهو أيضا من باب الجهل ، بسبب الطمس على قلوبهم وحجبها عن الهداية نتيجة كفرهم ، واستكبارهم فى الأرض بغير الحق .

فى تلك الظروف ، والحالة هكذا ، أرسل الله سبحانه وتعالى هودا – عليه السلام – فى قومه عاد يدعوهم إلى عبادة الله وحده دون شريك : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ؛ وأن يخضعوا حياتهم لنظام الله وشرعه ، وأن يقلعوا عن المعاصى ، والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، وأن يشكروا نعم الله عليهم ، بتصريفها فى مصارفها التى شرعها الله عز وجل ، وأداء حق الله فيها : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إنِّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[٣] . وأن يكثروا من الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل ، حتى يزدهم الله قوة إلى قوتهم ، وينعم عليهم بالمزيد من النعم : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾[٤] . فالذنوب توجب غضب العظيم الجبار

---

(١) الأعراف :١٤٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ، « أى أمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل » .

(٢) كما ورد فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل ، العز إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن ينازعنى فى واحد منهما فقد عذبته » . رواه مسلم .

(٣) الشعراء : ١٣٢ – ١٣٣ .

(٤) هود : ٥٢ .

المتكبر ، وتؤدى إلى محق النعم وسلبها : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[1] .

كما حذرهم هود عليه السلام ، مغبة قطع الطرق على الناس ، والسطو عليهم ، وسلب تجارتهم والبطش بهم : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾[2] ولكن القوم ، قوم عاد « وخاصة العلية منهم » رفضوا هذه الدعوة دعوة الخير ، لخيرى الدنيا والآخرة ، ولم يكتفوا بهذا ، بل تعدوه إلى الوقوف فى وجه الدعوة وصاحبها باللسان وباليد ؛ فاتهموا هودا بالسفاهة والكذب والجنون : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنَّا لنراك فى سفاهة ، وإنَّا لنظنك من الكاذبين ﴾[3] ؛ ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[4] ، واتهموه بالبشرية : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾[5] ؛ وذهبوا كل مذهب يشككون فى الدعوة ذاتها : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾[6] .

لقد استكثرت عاد أن يدعوهم هود إلى عبادة الله وترك عبادة الآباء

---

(١) طـه : ١٣٤ .

(٢) الشعراء : ١٢٨ . أى يبتنون القصور الفخمة ونحوها ، يعبثون ببنائها (لأنه لا حاجة لهم فيها) باتخاذها أماكن للهو والفساد ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام ، التى تحملها الأعمدة . وقد تكون علامات يضللون بها المسافرين عن الطريق ليعبثوا بهم . وكلها كناية عن العتو عن أمر الله والاعتداء على حرماته (البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٥) .

(٣) الأعراف : ٦٦ .

(٤) هود : ٥٤ .

(٥) المؤمنون : ٣٤ .

(٦) المؤمنون : ٣٥ – ٣٧ .

الضالين : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ ﴾[1] وهذا مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول

ولكن رغم هذا الصد عن سبيل الله ، والهجوم على الدعوة وصاحبها ، فإن الدعوة كانت تكتسب أنصارا جددا من بين صفوف عاد ؛ ولذلك فقد استمرت حملة التشكيك فى الرسالة وصاحبها ؛ وكان موقف هود عليه السلام ، موقف الناصح الأمين الذى لا يجهل حين يجهل الناس ، ولا يفقد صبره ، إذا استعجل الناس ، فنراه طورا يدفع السيئة بالحسنة ، ويدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة : ﴿ يا قوم ليس بى سفاهة ولكنّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالاتِ ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟؟ ﴾[2] .

وكان هود عليه السلام – كغيره من الرسل عليهم السلام – حريصا على أن يبلغ دعوة ربه – رغم كل الظروف والعقبات ، بلاغا كاملا ؛ يتمثل ذلك الحرص فى وقوف هود عليه السلام موقف المربى المسلم الذى يذكر قومه بتاريخ الأمم السابقة ، ومصائرهم : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾[3] ، قوم نوح الناجين من الطوفان نتيجة إسلامهم لله رب العالمين ؛ وقوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان نتيجة تكذيبهم لرسولهم ورفض الدخول فى دين الله عز وجل ... وكان هذا العرض من جانب هود عليه السلام – لتاريخ السابقين كافيا ، أن يهز مشاعر قومه « عاد » ، ويردهم إلى دينهم وربهم – ولكنهم كانوا طغاة متجبرين رافضين . ﴿ قالوا سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين ﴾[4] .

ولا يجد الرسول أمامه من سبيل بعد أداء واجب البلاغ كاملا ،

---

(١) الأعراف : ٧٠ .
(٢) الأعراف : ٦٧ – ٦٩ .
(٣) الأعراف : ٦٩ .
(٤) الشعراء : ١٣٦ .

إلا أن يفاصل قومه ، ويبرأ من الشرك الذى يزاولونه ، مع التوكل على الله عز وجل ، مع بيان أن عدم الاستجابة لداعى الله ، يعنى ، استبدال قوم عاد بغيرهم واستئصال شأفتهم :

﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنّى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تُنظرون . إنّى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾[١] .

وجاء الرد الإلهى متناسبا مع الظلم الذى ارتكبته عاد ، فى حق ربها ، ودينها ورسولها وشخصها .

﴿ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[٢] - ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾[٣] .

فها هى حيثيات الحكم الربانى العادل غير الظالم ، الذى جاء متناسبا مع الجرم الذى ارتكبته عاد :

الجحود بآيات الله ، وعصيان الرسل ، واتباع أمر كل جبار عنيد ، هو الذى استحقوا بسببه لعنة الله فى الدنيا والآخرة ، لأنهم كفروا بربهم ، وكذبوا رسولهم : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾[٤] ، ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا

---

(١) هود : ٥٤ - ٥٧ .
(٢) الأعراف : ٧٢ .
(٣) هود : ٥٩ - ٦٠ .
(٤) الشعراء : ١٣٩ .

ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[1] .

وهذه إضافة أخرى لحيثيات الحكم الربانى ، تبين لنا سنة من سنن الله الثابتة فى أخذ الظالمين :

- الاستكبار فى الأرض بغير الحق .
- الغرور ، والاستعلاء على الله والناس بالقوة .
- الجحود بآيات الله .

وكان التدمير لقوم عاد الكافرين :

﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجْزى القوم المجرمين ﴾[2] ؛ فعذابٌ مشابهٌ جاهز لكل مجرم يسلك مسلكهم .

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾[3] .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر . كذبت عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر فكيف كان عذابى ونذر ﴾[4] .

وعلى الجانب الآخر ، كانت النجاة من الله عز وجل لهود ومن معه من المسلمين ، ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .

ثم يأتى البيان الإلهى العام فى أعقاب المعركة التى قامت فى حياة أمة عاد بين

---

(١) فصلت : ١٥ - ١٦ .
(٢) الأحقاف : ٢٤ - ٢٥ .
(٣) الذاريات : ٤١ - ٤٢ .
(٤) القمر : ١٧ - ٢١ .

حزب الله وحزب الشيطان ، وما أسفرت عنه : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون .. تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤْمِنُوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾(١) .

الزمن التقريبى لقيام دولة عاد ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فى جنوب الجزيرة العربية وعلاقتها بدولة معين :

إن أقدم ما تحكيه المصادر الإسلامية من أخبار القرون الأولى للجزيرة العربية هو ما رواه القرآن الكريم عن « أمة عاد » . والقرآن الكريم يقدم لنا قرينة تؤكد أن « أمة عاد » هى الجيل الذى استخلفه الله عز وجل بعد جيل نوح عليه السلام الذى نجاه الله من الطوفان ، هذه القرينة نلمحها فى قوله تعالى على لسان هود عليه السلام لقومه عاد مذكرا بأخبار السابقين :

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾(٢) .

---

(١) الأعراف : ٩٤ – ١٠٢ .

(٢) الأعراف : ٦٩ . وقد وضع المشتغلون بالدراسات الأثرية تاريخا تقريبا للطوفان القرن الأربعين قبل الميلاد .

كما يقدم القرآن الكريم قرينة أخرى تؤكد أن عادا كانوا يعيشون فى عصر سابق لعصر موسى عليه السلام . يتضح ذلك من قوله سبحانه وتعالى على لسان مؤمن آل فرعون وهو يعظ قومه مذكرا بأخبار السابقين : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم إنِّى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ﴾[1] . ومن غير المعقول أن يُذَكِّرَ مؤمنُ آلِ فرعونَ قومَهُ بتاريخِ أقوام لم يسبقوهم إلى هذا الوجود .

وقد حدد المشتغلون بالتاريخ ، القرن الثالث عشر قبل الميلاد تاريخا تقريبيا لخروج موسى وقومه من مصر (أى فى عهد الفرعون مرنبتاح ؟). وبهذا نصل إلى تحديد يؤكد أن « عادا » عاشوا بعد جيل المسلمين الذين نجوا مع نوح عليه السلام ، وقبل رسالة موسى عليه السلام إلى شعب مصر والتى دعاهم فيها إلى الإسلام .

وبناء على ذلك يمكن أن نضع افتراضا مضمونه أن عادا قد عاشوا فى فترة ما بين القرنين الأربعين والثالث عشر قبل الميلاد تقريبا .

وحيث أن المشتغلين بالتاريخ من المحدثين قد وضعُوا فى هذه الحقبة الزمنية (ما بين القرنين الأربعين والثالث عشر قبل الميلاد) أقدم « حضارة مادية عثر عليها فى الجزيرة العربية ، وهى ما تسمى بحضارة معين »[2] ، فيمكن لنا اعتمادا على ما سبق ، أن نفترض أن ما تسمى بحضارة معين قد قامت على أكتاف العاديين قوم هود عليه السلام ؛ ويقوى هذا الافتراض فى ظننا ما يأتى :

أولا : الآثار التى عثر عليها فى منطقة جوف أرحب بين نجران

---

(١) غافر : ٣٠ – ٣١ ؛ ويتضح ذلك من قوله تعالى على لسان موسى وهو يدعو الفراعنة إلى الدخول فى دين الله عز وجل : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا ، فإن الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنَّا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ (إبراهيم ٨ – ٩) .

(٢) إسم حصن ، أو قرية من قرى اليمن فى مخلاف سنحان (معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٠٢) .

وحضرموت ، وهى نفس المنطقة التى كان يتركز فيها وجود قوم « عاد » .

ثانيا : ما ذهب إليه المشتغلون بالتاريخ القدامى (اليونانيون والمسيحيون) من نسبة قوم عاد إلى عمالقة العراق وأنّهم هاجروا إلى جنوب الجزيرة العربية ونزلوا بإقليم الجوف وشيدوا القصور على مثال ما شهدوه فى بابل . والأصول الإسلامية تؤكد كما بينا أن قوم « عاد » هم من ذرية الناجين مع نوح « عليه السلام » من الطوفان والذين كانوا قد استقروا فى منطقة بلاد النهرين مع إقليم عيلام والمصادر الإسلامية تؤكد أيضا أن عاداً ينسبون إلى سام الذى هاجر وقومه من العراق واستقروا فى جنوب الجزيرة العربية .

وإذا صح هذا الافتراض فيمكن أن ننظر إلى مخلفات الدولة المعينية على أنها من مخلفات قوم عاد ، التى يمكن أن تلقى المزيد من الضوء على هؤلاء الأقوام ، وإن كان ذلك المزيد لا قيمة له فى تحقيق الهدف من دراسة سيرة هود وقومه فى ضوء التصور الإسلامى . من هذا المزيد :

(أ) نظام الحكم داخل المجتمع العادى كان حكما ملكيا وراثيا ، وكان المجتمع طبقيا ، ويشتمل على طبقات الأشراف والفلاحين والعبيد وأصحاب الحرف وهذا السمت الأخير يدل على بعد المجتمع عن شرع الله ونظامه سبحانه وتعالى .

(ب) أن الدولة العادية المعينية قد امتد سلطانها ليشمل الجزيرة العربية كلها مع جنوب فلسطين ، فقد كان لهم مراكز تجارية ومراكز للسلطة فى معان[١] ، وكذلك العلا . وأن اقتصاد الدولة كان يقوم على التجارة ونقل البضائع وتحصيل الضرائب من القوافل[٢] التى تمر بأرض الجزيرة .

---

(١) مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء .

(٢) كان يحد الجزيرة العربية طريقان أساسيان على حافة الصحراء ، تنقل عليهما السلع من المحيط الهندى إلى موانى فلسطين وسورية – فكان أحد هذه الطرق يمتد من اليمن إلى جنوب فلسطين . والثانى يمتد من الخليج العربى ويدخل وادى الرافدين (دجلة والفرات) ثم ينحرف إلى سورية قاصدا دمشق . وعلى هذين الطرفين قامت حاميات الحدود والطرق العربية . وكان استعمالهما وإغلاقهما (الطرق) يقرر مصير تلك الدول .

(جـ) كانت عاصمة هذه الدولة السياسية فى بلدة تسمى « قرناو »[1] أو القرن حاليا .

بالإضافة إلى ما سبق ، سواء أكانت التسمية التى أطلقتها النصوص المصرية القديمة ، « بُنْط » تنطبق على اليمن ، أو على المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب والصومال وأريتريا وجنوب جزيرة العرب ، فإن فراعنة مصر كانوا يرسلون البعثات التجارية إلى هناك ، – كما فعل ساحورع أحد فراعنة الأسرة الخامسة (٢٦٠٠ ق . م) – لاحضار المواد التى يحتاجونها من هناك .. وهذا يدل أن الدولة العادية كانت لها علاقات تجارية واسعة مع الشعوب المعاصرة ، ومنها مصر ، بل إن مصر فى تلك الفترة قد تأثرت بعقيدة التوحيد التى حمل لواءها هود عليه السلام .

* * *

(١) شمال شرق صنعاء (انظر معجم البلدان ، المجلد السابع ، ص ٦٥ – ٦٦) .

الجــزء الثــانى

قــوم ثمــود
وسيــرة صالح عليه الســلام

من هم ثمــود ؟ ومن هو صالح عليه السلام ؟ وإلى من ينتسبون ؟ ومن أين أتوا ؟ وأين نزلوا من جزيرة العرب ؟؟ .

هل قامت لهم دولة ؟ .. وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ .. هل يمكن بيان الحدود التى كانت عليها دولة ثمود ؟؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم العقدى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ؟ .... إلى غير ذلك من الأسئلة التى يمكن أن تخطر على ذهن الدارس لتاريخ الثموديين وسيرة نبيهم صالح عليه السلام .

مـا هـى الفائدة التى تعود على البشرية عامة وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص نتيجة التعرف على سيرة صالح عليه السلام وقومه ثمود ؟.

ثمود أمة مشهورة من العرب(١) ، وكانوا يسكنون الحجر(٢) بوادى القرى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) سورة الحجر آية ٨٠ ؛ (ذكرت بعض المراجع القديمة غير العربية الأصل وجود اسم ثمود وقوم ثمود . ومن ذلك نقش للملك الأشورى سرجون ، ويرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ ق . م . ذكر اسم ثمود فيما ذكر من أقوام شرق جزيرة العرب ووسطها الذين أخضعهم الأشوريون . كما ورد اسم ثمود Thamudenes فى مؤلفات أرسطو وبطليموس وبليناس ، وقد ذكر بليناس من منازل ثمود : رُمَسّه وهكره (الحجر) Hegra . وفى تصورنا أن الثموديين الذين ورد ذكرهم هنا هم من بقايا الثموديين الذين نجوا مع صالح عليه السلام من العذاب نتيجة إسلامهم .. ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن ورود اسم ثمود فى =

بين الحجاز وتبوك من جزيرة العرب ، وهم فى الأصل من سلالة(1) المسلمين الذين نجوا من العذاب من القبائل العادية مع هود عليه السلام ، أى أنهم ينتسبون فى النهاية إلى سام بن نوح عليه السلام . وبمضى الوقت نجح الشيطان فى اجتيالهم عن دينهم فانحرفوا عن دين الله وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . ومن رحمة الله بالعباد وثمود ، فقد اصطفى سبحانه وتعالى رسولا منهم هو صالح عليه السلام لكى يدعوهم إلى العودة إلى ربهم ودينهم : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم . هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذكُمْ عذابٌ أليمٌ . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾(2)

ومن تذكير صالح عليه السلام لقومه ثمود ، نلمح أثر النعمة والتمكين لهم فى الأرض ، كما نلمح طبيعة المكان الذى كانوا يعيشون فيه (الحجر) فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور وينحتون من الجبال البيوت فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم .. وصالح هنا يذكرهم باستخلاف الله لهم من بعد عاد (ولذلك يطلق عليهم المفسرون اسم عاد الثانية) وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها ، ولكنهم يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضا . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض ، محكمين فيها ، وصالح ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد اغترارا بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين (الأولى) .

= المصادر القديمة دليل على الوجود الحقيقى لثمود ، أى أنهم لم يبيدوا ولم تنطمس أخبارهم كما زعم المستشرقون ؛ وليسوا أسطورة كما تزعم دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٦ ، « عاد وثمود » ويؤكد ذلك الوجود أن الشعراء قبل بعثة محمد ﷺ قد ذكروا ثموداً وعاداً فى معرض الاستشهاد بزوال المتاع الدنيا على سبيل العظة والعبرة ومن هؤلاء الشعراء الأعشى وأمية بن أبى الصلت .

(١) ولذلك فهم ينتسبون إلى إرم بن سام بن نوح عليه السلام : وكانوا مسلمين على اعتبار أن جميع الرسل قد دعوا إلى الإسلام كما قدمنا .

(٢) الأعراف : ٧٣ - ٧٤ .

فمع وصول ثمود إلى القمة فى مجال التقدم الحضارى المادى ، فقد كان هنالك هبوط إلى المستنقع الآسن فيما يتصل بقضية الإيمان بالله ، لقد نسوا عهد آبائهم وأجدادهم وعهدهم مع الله ، أن يكونوا مسلمين ، أى مستسلمين لله بالكلية . لقد نسوا ما حل بقوم عاد الذين كفروا برسالة هود عليه السلام ، لقد نسوا أن الله الذى أرسل على قوم عاد المكذبين ، ﴿ ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ، قادر على أن يهلكهم ويهلك غيرهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويوحدوا ربهم وخالقهم . لقد عميت القلوب ، والأبصار ، ونضب معين الخير فى نفوسهم ، لا نقول كل النفوس وإنّما غالبية النفوس ؛ فقد آمنت قلة مستضعفة من ثمود بدعوة صالح ودخلوا فى الإسلام ؛ وكفرت الغالبية وهم الملأ ، أصحاب السلطان والجاه والمال ، المتكبرون ، الذين صرف الله قلوبهم عن تدبر آياتِهِ ، بسبب إصرارهم على كبرهم وكفرهم ، وشركهم بالله عز وجل ، وياليتهم وقفوا عند هذا الحد ولكنهم مدُّوا أيديهم وألسنتهم بالإيذاء إلى المؤمنين يحاولون فتنتهم عن دينهم . لماذا ؟ لأن المؤمنين قد خَلعُو ارُبْقَةَ الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد ومنهم الملأ أصحاب السلطان ، والملألا يطيقون دعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وترده إلى إله واحد هو الله رب العالمين .

– والمستغرب من الملأ ، هذا الموقف ، بعد أن أرسل الله لهم بينة طلبوها من نبيهم عليه السلام : « وهى الناقة » : ﴿ قد جاءتكم بَيّنةٌ من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾(١) .

﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾(٢) .

﴿ إنَّا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾(٣) .

---

(١) الأعراف : ٧٣ . (٢) الشعراء : ١٥٥ – ١٥٦ . (٣) القمر : ٢٧ – ٢٨ .

وحاول الملأ الذين كفروا صرف المؤمنين بدعوة صالح عن دينهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – أتعلمون أنَّ صالحا مرسل من ربه ؟ ﴾[1] .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافا لقد سكب الإيمانُ باللهِ القوةَّ فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم ، : ﴿ قالوا إنَّا بِمَا أُرسل به مؤمنون ﴾[2] . وهنا أسقط فى أيدى الملأ الطغاة من قوم ثمود فذهبوا يتوعدون : ﴿ إنَّا بالذى أرسلتم به كافرون ﴾[3] ؛ على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح والتى لا تدع ريبة لمستريب .. إنَّه ليست البينة التى تنقص الملأ للتصديق ولكنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد ، إنَّها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنَّها شهوة الملك العميقة فى الإنسان .. إنَّه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام .

ولكن النبى المسلم صالح عليه السلام لم يفقد صبره ، فاستمر يبلغ دعوة ربه ، وهو واجبٌ عليه مستخدما كلَّ أساليب الدعوة المتاحة فى عصره .

فها هو صالح عليه السلام يذكر قومه بنعم الله عليهم : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[4] ، أى هو الذى خلقكم وأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها أى أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرازق الذى يستحق العبادة وحده دون سواه. ولابد من الاستغفار الدائم والتوبة لضمان استمرار تدفق نعمه وعدم زوالها .

وفى موضع آخر من القرآن يقول صالح عليه السلام لقومه ثمود : ﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾[5] فَتَذَكُّرِ النعمِةَ يستوجبُ شكر المنعم عز وجل وتوحيده بعد معرفة قدره ، وهذا دليل على الثراء

---

(١) الأعراف : ٧٥ .
(٢) الأعراف : ٧٥ .
(٣) الأعراف : ٧٦ .
(٤) هود : ٦١ .
(٥) الشعراء : ١٤٧ – ١٥٠ .

والنعمة التى كانت ترفل فيها القبائل الثمودية .

واستمر الملأ الذين كفروا من قوم ثمود فى عنادهم يتربصون بالدعوة والداعية وأتباعهم ، يمدون إليهم ألسنتهم بالسوء ؛ وكان النصيب الأكبر من بذاءتهم يصل إلى صالح عليه السلام . فاتهموه بالكذب : ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾[1] ؛ ﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾[2] .. واتهموه أيضا بالسحر وبأنه بشر ولا يجوز لبشر أن يُصْطَفى للرسالة : ﴿ قالوا إنَّما أنْتَ من المُسَحَّرين ﴾ ؛ ﴿ ما أنْتَ إلّا بَشَرٌ مِثْلنا فَأْتِ بِآيةٍ إنْ كُنْتَ من الصادقين ﴾ ؛ بل واتهموه ومن معه أنهم وجه شؤم : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾[3] .

ورغم هذا فإن صالح عليه السلام ، لم يفقد صبره ، ولم يجهل عليهم كما جهلوا عليه ، وإنَّما كان دائما كأصحاب الدعوات ، رحيما ، مهذبا ، عف اللسان فى تذكير قومه بين الحين والحين : ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالْسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾[4] .

ولكن ثمود استحبوا العمى على الهدى ، وقابلوا دعوة الخير والنَّجاة ، بالإساءة والطغيان ، فها هم يتآمرون لقتل الناقة .

إنَّهم لا يطيقون أن يروا الداعية إلى دين الله ، متحركا ، يكسب من الشيطان وحزبه ، مؤمنا جديدا ؛ إنَّهم لا يطيقون أن يعيشوا فى مجتمع مسلم يمكن أن يقوم لو تركت الدعوة وشأنها وخلّى بين الناس وربهم ، إن صالحا لم يرفع سيْفاً فى وجوه قومه ثمود ، ولم يتآمر عليهم ؛ إنَّه يدعو إلى الله بلسانه فقط . كذلك من كان معه ؛ ومن المؤكد أنه لو تركت الدعوة إلى الله حرة وخلىّ بينها وبين الناس ، لا كتسبت كل يوم أنصارا جددا .

---

(١) القمر : ٢٥ .

(٢) هود : ٦١ .

(٣) النمل : ٤٧ .

(٤) النمل : ٤٦ .

ولكن الملأ ، الطغاة ، لا يطيقون ولا يقبلون ، لا يطيقون أن يقوم حكم الله فى الأرض ويسقط حكم الطاغوت ، ولا يقبلون أن يكونوا عبيدا لله الواحد القهار ، ونسوا أن فى ذلك تكريماً لهم أى تكريم .

ولذلك كان التآمر على قتل الناقة ، تصوروا منهم أنه بقتل الناقة يحرمون الدعوة من أتباع جدد يمكن أن يزداد عددهم بمضى الوقت ، فعقروها ، وكذلك كان التآمر على قتل صالح ، تصوروا منهم أنه بقتل الداعية ، ستموت الدعوة إلى الله رب العالمين : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنَّا لصادقون ﴾[(١)] .

وهكذا كان موقف قريش من محمد ﷺ ودعوته : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾[(٢)] .

إنهم لا يعرفون إلا الغدر والخيانة والتربص بأصحاب الدعوات ، بعد أن أفلسوا وأفلست أنظمتهم ، ليس لديهم حجة يدفعون بها الدعوة إلى الله ، ليس لديهم مبرر مقبول يمنع من قبول دعوة الله سبحانه وتعالى ، إنما هى الرغبة فى النكول عن دين الله ﴿ لأنهم استحبوا العمى على الهدى ﴾ . إذن اتركوا صالحا وشأنه ، ولننظر النتيجة فى النهاية ؛ ولكنهم لا يطيقون أن يرتفع صوت بلا إله إلا الله أمامهم ، فكان التآمر على قتل صالح بعد قتل الناقة .

ولكن هل الكون متروك للظلمة يظلمون ويفتكون دون ردع أو عقاب ؟ كلاَّ فعين الله على كل شيء ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[(٣)] .

ولكن هل يسلم الله سبحانه وتعالى عبده ونبيه ومصطفاه « صالحا عليه

---

(١) النمل : ٤٨ - ٤٩ .
(٢) الأنفال : ٣٠ .
(٣) الأنعام : ٥٩ .

السلام » لأعدائه ؟ كلاً ، فالله يقول فى الحديث القدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب »(١) .

فعين الله تراقب ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة ، فهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، يقول الله عز وجل : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِيْن . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيةً بِمَا ظَلَمُوا إنَّ فى ذلك لآيةً لقوم يعلمون ﴾(٢) .

لقد كان التدمير متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبه المشركون من ثمود ، لقد أشركوا بالله رغم أنه هو الذى خلقهم وهو الذى رزقهم وهو الذى مكن لهم : « أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى ، خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد) . لقد كان التدمير متوائما مع تآمرهم على الصف المسلم وفتنته ومحاولة صرفه عن دينه : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر . إنَّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾(٣) .

أين الذين كانوا ملء الأعين والنفوس ؛ أين الجبارون ؛ أين المتكبرون ؛ أين أعداء الإسلام ؛ أصبحوا فى ديارهم جاثمين لا حراك فيهم(٤) .

ومرت قرون وقرون ، ومرّ رسول الله ﷺ وصحبه على ديار ثمود فى طريقه إلى غزوة تبوك ، فقنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع راحلته ونهى

---

(١) فى حديث لأبى هريرة عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل رواه البخارى . آذنته : أعلمته بأنى محارب له .

(٢) النمل : ٥٠ .

(٣) القمر : ٣٠ - ٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٤) يحاول بعض الكتاب تصوير إهلاك قوم صالح على أنَّه نتيجة انفجار بركان : « إن هلاك ثمود قد اقترن بانفجار بركان ، كون حقولا من الحمم مختلفة السعة تعرف فى بلاد العرب ، بالحرة وإلى الغرب من الحجر حرّة من أكبر هذه الحرار (دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٦ ، عاد وثمود) ؛ ويقول د . محمد مهران . وهناك من يرى أن ثمودا ، إنما أصيبوا بكارثة عظمى ، من ثوران براكين ، أو من هزات أرضية ، معتمدا فى ذلك على ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات رجفة وصحبة وربما كان الأمر كذلك ، فمنطقة إقامتهم إنما هى واحدة من مناطق الحرار فى شبه الجزيرة العربية (دراسات تاريخية من القرآن ، ج ١ ، ص ٢٧٩) .

أصحابه عن دخول منازل ثمود إلا أن يكونوا باكين أو متباكين خشية أن يصيب المسلمون ما أصاب الكافرين . قنع رأسه لئلا يرى ما خلفه الظالمون ، مجرد رؤية المكان الذى كانوا يعيشون فيه أو الدخول عليهم نهى عنه رسول الله ﷺ إلا أن يكون الداخل باكيا أو متباكيا خشية أن يصيبه ما أصابهم .

الزمن التقريبى لرسالة صالح عليه السلام وقيام دولة ثمود (عاد الثانية) :

من المؤكد أن رسالة صالح عليه السلام وقعت قبل عصر موسى عليه السلام (أى قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريبا) . يؤكد ذلك آية من كتاب الله فى قول الله عز وجل على لسان موسى وهو يعظ فرعون والملأ من قومه مذكراً بتاريخ الأمم السابقة ومنهم ثمود قوم صالح . ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإنَّ الله لغنى حميد . ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواهم وقالوا إنَّا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شكٍّ مما تدعوننا إليه مريب﴾(١) .

* * *

---

(١) إبراهيم : ٨ — ٩ .

الجــزء الثــالث
قوم مدين
وسيرة شعيب عليه السلام

من هو شعيب عليه السلام ؟؟ ومن هم مدين ؟؟ وإلى من ينتسبون ؟؟ وأين كانوا ينزلون ؟؟ ومن أين أتوا ؟؟ ما مدى التمكين الذى تحقق لهم فى أرض الله ؟؟ وهل قامت لهم دولة ؟؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟؟ هل يمكن التعرف على جوانب من تاريخهم العقائدى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ؟؟ وما هى الدروس التى تعود على البشرية عامة وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص نتيجة معرفة أخبار شعيب عليه السلام وقومه مدين ؟؟ .

تمهيــد :

إذا حاولنا الإجابة على هذه الأسئلة ، ليس أمامنا من مصدر سوى القرآن الكريم وما ورد فى سنة النبى محمد ﷺ ؛ أما ما عدا هذين المصدرين ، فما ورد فيها لا يعتدّ به كثيرا ، ولكن لابد وأن نضع فى الاعتبار ، أن القرآن نزل بلغة العرب وقد خاطب أول ما خاطب العرب الذين عاشوا فى الجزيرة العربية ؛ وذلك يعنى أننا إذا أردنا أن نفهم هذا القرآن فليس أمامنا إلا اللسان العربى ، وما ورد فى المصادر العربية التى نزل القرآن بلغة أهلها .

وثمة شىء آخر ، أن القرآن وهو يحدث العرب بلغتهم ويذكر لهم أخبار السابقين الذين عاشوا فى الجزيرة العربية ، لا يخاطب بهذا الأمر أقواماً خالى الذهن عن هؤلاء السابقين ، ولكن لابد وأنه كان لديهم علما عنهم بما فى ذلك مواقع

إقامتهم ؛ وبالتالى فإن ما قاله المؤرخون العرب والجغرافيون عن مواطن هذه القبائل العربية ، صحيح إلى حد كبير ، وليس من المعقول أن نلهث وراء تخبطات اليونان أو الروم أو المستشرقين عن مواطن هذه القبائل العربية ، وهم ليسوا أصلا من سكان الجزيرة ، ولا يعرفون لغة أهلها ، وهم يكتبون عنها ، فى وقت اختلفت مصالحُ بلادهم مع مصالح أهل الجزيرة العربية . ثم لماذا نتلمس خبرا صحيحا فقط عند أولئك ؟ ولا نتلمس الخبر الصحيح عند أهل تلك البلاد من العرب .

بالإضافة إلى ما سبق نود أن نذكر شيئاً على جانب كبير من الأهمية ، نستشعره من خلال العرض القرآنى لأخبار السابقين .

إن المعلومات الواردة فى القرآن الكريم والحديث عن الأخبار السابقين بوضعها الذى هى عليه كافية تماما لتحقيق الهدف الذى من أجله قصّ الله سبحانه وتعالى أخبار هؤلاء الأقوام على رسوله محمد ﷺ ، وعلى الأمة المسلمة وعلى البشرية فى كل زمان ومكان ؛ ولو كان قد سبق فى علم الله سبحانه وتعالى أن هذه المعلومات عن السابقين التى أنزلها فى القرآن غيرُ كافية ، وأنه سيأتى زمان كزماننا يحتاج الناس فيه إلى قدر أكبر من المعلومات ، لأنزلها سبحانه وتعالى .

إن ما أنزله الله من المعلومات عن أخبار السابقين كاف وبه حصل المقصود ، ولله الحمد والمنة . ونصل من ذلك إلى بيان حقيقة يجب ألا تغيب عن ذهن المسلم : ليس هناك أعظم من الهدف الذى من أجله قص الله سبحانه وتعالى أخبار السابقين ومنهم مدين قوم شعيب ؛ هذه عقيدة يجب أن يؤمن بها المسلم ﴿ قل ءأنتم أعلَم أمِ الله ؟ ﴾ . وذلك يعنى أن ما يخبط فيه الذين يحترفون صناعة التاريخ جريا على نهج المستشرقين لن يؤدى بهم إلى خير ، وأن ما يتبنونه لن يزيد البشرية إلّا حيرة وضلالا ، بالإضافة إلى أنها تستهلك جهد ووقت أبناء آدم فيما لا يعود عليهم بخير فى الدنيا أو الآخرة .

شعيب عليه السلام نبى كريم من العرب ، اصطفاه الله سبحانه وتعالى برسالة إلى قومه مدين . ومدين من القبائل العربية الذين كانوا ينزلون مدينة مدين القريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة

لوط[1] (البحر الميت) . وينسبهم المفسرون إلى إبراهيم عليه السلام ، وإن كانوا لا يملكون دليلا على نسبتهم هذه . وكانت مدين تقع على أهم الطرق التجارية التى تبدأ من جنوب الجزيرة العربية (المحيط الهندى) مرورا بمكة والمدينة وتبوك ونهاية بالشام (سورية وفلسطين) . أى أن اقتصاد أهل مدين كان يقوم على التجارة ؛ ولكن لا نستطيع أن نقرر بيقين هل كانت لهم دولة ، وما هى الحدود التى كانت عليها وإن كان من المؤكد أنه كانت لهم سطوة وجبروت على غيرهم ، وكانو كثرة .

هؤلاء القوم « مدين » أشركوا بالله عز وجل ، كغيرهم من الطواغيت ، ومن مظاهر هذا الشرك عبادتهم لشجرة الأيكة التى حولها غيضة ملتفة بها ؛ وأيضا عدم إخضاع تعاملاتهم لنظام الله عز وجل وشرعه ، فكانوا أسوأ الناس معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص . فبعث الله فيهم رجلا منهم ، معروف فضله وأمانته ، وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم أول ما دعاهم إلى عبادة الله وحده دون شريك ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بَخْسِ الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبلهم ، وطرقاتهم ؛ فآمن به بعضُهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره قد جاءتكم بَيِّنَةٌ مِنْ ربِّكُم ﴾ أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع[1] على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلنى . ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ . وفى معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٤١٧ – ٤١٨ ، « مدين على بحر القلزم (الأحمر) محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهى أكبر من تبوك وبها البئر الذى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب » ؛ انظر أيضا ، فى ظلال القرآن ، جـ ٣ ، ص ١٣٠٦ – ١٣٢٢ ؛ وأورد أبو العباس أحمد بن القلقشندى (٨٢١ هـ – ١٤١٨ م) فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩٨٣ : « مدين وهم بنو مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وكانت ديارهم ديار عاد ، وأرض معان من أطراف الشام مما يلى الحجاز قريبا من عشيرة قوم لوط ، بعث لهم شعيب فلم يؤمنوا » .

أشياءهم ، ولا تُفْسدُوا فى الأرض بعد إِصْلَاحِهَا ، ذلِكُمْ خيرٌ لكمْ إنْ كُنْتُم مُؤمِنِين . ولا تَقْعُدوا بكل صراط ﴾ أى طريق ﴿توعدون ﴾[1] أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك ، وتخيفون السبل . كما نهاهم نبيهم عليه السلام عن صد النَّاس عن الهدى رغبة فى أن يسود الضلال والكفر بدلا من الإيمان بالله رب العالمين : ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾[2] . ولكن الملأ من القوم صمّوا آذانهم عن قبول الهدى ، والاستجابة إلى داعى الله عز وجل ، ومع هذا فإن الرسول الكريم صاحب الدعوة لم ييأس ، واستمر يُذِّكرُ قومه بنعم الله عليهم : ﴿ واذكُرُوا إذْ كنتم قليلاً فَكَثَّركُم ﴾[2] ، أى تكثيرهم بعد القلة ، كما حذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ، ودلهم عليه ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[3] . ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان إنِّى أراكم بخير ، وإنِّى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾[4] . ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إنْ كُنْتُم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا : يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنَّك لأنْتَ الحليم الرشيد . قال : يا قوم أرأيتم إنْ كُنْتُ على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلَى مَا أنْهَاكم عنه ، إنْ أُريدُ إلّا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلّا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إنّ ربِّى رحيم ودود ﴾[5] .

---

(١) الأعراف : ٨٥ – ٨٦ .
(٢) الأعراف : ٨٦ .
(٣) الأعراف : ٨٦ .
(٤) هود : ٨٤ .
(٥) هود : ٨٥ – ٩٠ .

ولكن أنّى للقلوب القاسية أن تستجيب ، وأنّى لها أن تقف موقف الانتظار والتريث تاركة الفرصة لغيرها لقبول الدعوة أو رفضها، لقد وقف القوم موقفا يدعو إلى الدهشة وإن كان هو نفس موقف الجاهلية من الدعوة إلى الله عز وجل على مدار تاريخ البشرية ؛ فها هم القوم يهددون شعيبا بالقتل ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنَّا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾(١) أى لولا قبيلتك وعشيرتك فينا لرجمناك ..

﴿ قال يا قوم أَرَهْطِى أعزُّ عليكُمْ من الله ﴾ أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وتراعونى لأجلهم ولا تخافون الله ولا تراعونى لأنى رسول الله ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾ أى جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنِّى معكم رقيب ﴾(٢) . أى سوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار . وفى موضع آخر قال لهم : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾(٣) .

ولكن القلوب الكافرة ، ولكن الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان والمال الذين استكبروا فصرف الله قلوبهم عن الهداية ، هددوا الرسول الكريم الداعية إلى الله ، وهو موقف مكرر فى تاريخ البشرية ، هددوه والمؤمنين معه بالإخراج من قريتهم إن لم يرتدوا عن دينهم ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين ﴾(٤) .

ولكن هل للقلوب التى خالطتها بشاشة الإيمان أن تستجيب تحت ضغط الوعيد لمطالب الكفر ؟، لقد جاء الرد حاسما واضحا ، ﴿ قد افترينا على الله

---

(١) هود : ٩١ .
(٢) هود : ٩٢ - ٩٣ .
(٣) الأعراف : ٨٧ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .

كذبا إن عُدْنَا فى ملَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا الله مْنهَا وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا وَسعَ ربَّنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾(١) .

إنَّه رفض لتهديدات الجاهلية ، وتمسك بالحق الذى أكرمهم الله به ، وتوكل على الله عز وجل واعتصام به ، ثم طلب النصرة منه .

ومع هذا لم يرتدع الكفَّار وصمموا على ما هم عليه واستمروا يشككون فى الدعوة وصاحبها ، محاولين صرف الناس عنها :

﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ، لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾(٢) .

يقول ابن كثير رحمه الله : « وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة ، أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ، ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ، ويوافق طبقاتها . فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم راجفين فقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾(٣) . فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق . وأما فى سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص ﴿ أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنَّك لأنت الحليم الرشيد ﴾(٤) فناسب أن يذكر الصيحة التى

---

(١) الأعراف : ٨٩ .

(٢) يزعم البعض أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، يقول ابن كثير « قول ضعيف » ، الأعراف : ٩٠ - ٩١ .

(٣) الأعراف : ٩١ .

(٤) هود ٨٧ .

هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الناصح ، فجاءت صيحةٌ أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم . وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك إجابة لما طلبوا . وتقريبا إلى ما إليه رغبوا ، فإنهم قالوا : ﴿ إنما أنت من المُسَحَّرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نَظُنُّكَ لمن الكاذبين . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً من السماءِ إنْ كُنْتَ من الصادقين . قال : رب أعلم بما تعملون ﴾[1] قال الله تعالى وهو السميع العليم : ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾[2].

(١) الشعراء : ١٨٥ – ١٨٨ .
(٢) الشعراء : ١٨٩ .

الجـــزء الرابع
الدروس المستفادة والمعالم التى ترسيها
سيرة هود وصالح وشعيب عليهم السلام
فى حياة الأمة المسلمة على وجه الخصوص وفى حياة البشرية على وجه العموم

من أجل أن يعبد الله وحده أرسل الله هودا إلى قومه عاد ، وأرسل صالحا إلى قومه ثمود ، وأرسل شعيبا إلى قومه مدين ، وأرسل سليمان إلى دولة سبأ ، ومن أجل أن يعبد الله وحده ، أرْسِلَ إسماعيل عليه السلام إلَى أهل الحرم ، ومن أجل توحيد الله ، أقام الله سبحانه وتعالى الحجة بأصحاب الأخدود على أهل عصرهم .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض ، بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ إنَّه من سليمان ، وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو علىَّ وَأْتُونِى مسلمين ﴾ .

إنَّها رحلة طويلة ، فى طريق مرسوم ، ملامحه واضحة ، ومعالمه قائمة ، ومبدؤه معلوم ، ونهايته مرسومة ، والبشرية تخطو عليه بمجموعها الحاشد ثم تقطعه راجعة .

ولقد وضح لنا القرآن الكريم الذى نزل به الوحى الأمين على قلب محمد ﷺ ، كيف استقبلت البشرية موكب الرسل الكرام وما معهم من الهدى كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ، كيف وقف الملأ لهذا الموكب بالمرصاد ، وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى فى طريقه إلى الله ، وكيف كان عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

إن القرآن الكريم وهو يروى لنا هذا الجزء الحقيقى من تاريخ الأمة المسلمة ، يعرض للمعارك التى وقعت وتقع بين الحق والباطل ، معارك الهدى والضلال ، معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان المستكبرين ، والأتباع المستخفين ، ويعرض الصراع المتكرر ، والمصائر المتشابهة ، وتتجلى صحائف الإيمان فى إشراقها ووضاءتها ، وصحائف الضلال فى انطماسها وعتامتها ، ويعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين ، ويقف عليها مذكرا ومحذرا .

إن أخبار السابقين تعكس لنا أن الرسل عليهم السلام ، وأصحاب الدعوات كانوا يستهدفون أمرا ضخما شاقا عسيرا ، لا يمكن أن يدركه اليوم إلّا الذى يعيش فى الجاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ويعلم أنه إنَّما يستهدف أمرا هائلا ثقيلا ، دونه صعاب جسام ، يَسْتَهْدِفُ إنشاءَ عقيدةٍ وتصورٍ ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال مغايرة تماما لما هو كائن فى دنيا الناس ، ويجد من رواسب[1] الجاهلية فى النفوس ، ومن تصورات الجاهلية فى العقول ومن قيم

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٢٤٦ ؛ ونظرا لأن طريقة وأسلوب عرض الأحداث التاريخية يشكل جزءا من المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ ، حتى يمكن للحدث التاريخى أن يؤدى دوره فى تربية الفرد المسلم ، فقد نقلنا هنا وفى مواضع أخرى نقولا بكاملها عن « فى ظلال القرآن » ، لسيد قطب رحمه الله ، لأنه ليس بإمكاننا أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب الإسلامى رحمه الله ، لكى تؤدى الدور المناط بها .

الجاهلية فى الحياة ، ومن ضغوطها فى الأوضاع والأعصاب ، ما يحس معه أن كلمة الحقيقة التى يحملها غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ، مُسْتَنْكَرَةٌ فى القلوب ، كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس فى جاهليتهم من التصورات والأفكار والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والأوضاع والارتباطات .

ومن خلال دعوة الرسل إلى أقوامهم **نلمح العديد من التوجيهات** :
أن الرسول دائما واحد من القوم الذين بعث فيهم ، يعرفون دينه وأمانته وصدقه ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ - ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ - ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ . ومن هنا تأتى **أهمية كون الداعية إلى الله معروفا فى قومه ، يعلمون صدقه وأمانته ودينه** . وبهذا دعا إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ ، واستجاب الله سبحانه وتعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ .

ونلمح أيضا موقف الأقوام من دعوة الخير التى حملها إليهم الرسل ، وتهدف إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتحبب إليهم الإيمان وتزينه فى قلوبهم ، وتكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

أولا : عـاد قوم هــود :

رفض الملأ أن يكونوا عبيدا لله عز وجل ، كما رفضوا الخضوع لنظامه وشرعه ، وراحوا يكيلون الاتهام للرسول وهو واحد منهم . لقد اتهموا الرسول بالسفاهة والكذب : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنَّا لنراك فى سفاهة وإنَّا لنَظُنُّك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنِّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فَأْتِنَا بما تَعِدُنَا إن كنت من الصادقين﴾ .

وهنا تبدو جملة من المواقف التى يجب أن يتملاها أصحاب الدعوات :

• **وجوب الدعوة إلى الله ، وهى أشرف الوظائف** لأنها وظيفة الرسل ، ويدخل فى هذه الدعوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . فلا يمكن أن تستقيم الحياة فى مجتمع ، يعبث فيه المفسدون فى الأرض ، دون أن تكون هنالك فئة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؛ والمعروف الأكبر أن يعبد الله وحده ، وتكون كلمة الله هى العليا فى حياة المجتمع . والمنكر الأكبر ، أن يُشرك بالله عز وجل ، وأن يُتحاكم إلى غيره .

● **أعـداء الرسل** ، أعداء دين الله عز وجل ، هم الذين رفضوا أن يكونوا عبيدا لله عز وجل ، ورفضوا أن تَخْضَعَ حياتُهم لنظامه وشرعه ؛ هم الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان الذين لا يطيقون أن تسير الحياة على منهج الله . ولهذا شاهدناهم يخططون ويتآمرون من أجل : صرف صاحب الدعوة عن دعوته . ويدخل فى هذا ، تشكيك القوم فى الداعى ، ولهذا فقد وصموا هودا بالسفاهة ، والكذب ... وكيف يتبع الناس رجلا موصوما بالسفاهة والكذب ؟

ولكن ما هو موقف الرسول ، الذى يدعو إلى دين الله ، فى مواجهة حملة التشكيك التى أرادت النيل من سمعته وصرف الناس عن دعوته ؟ لو قال لهم : أنتم السفهاء ، وأنتم الكذابون ، لصدق . ولكنه من أصحاب الدعوات ، وأصحاب الدعوات لا يجهلون على الناس إذا جهلوا عليهم : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ لقد كان الرد متناسبا مع مقام صاحبه :

﴿ قال يا قوم ليس بى سَفَاهَة ولكنِّى رسولٌ من رب العالمين ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وأَنَا لَكُمْ ناصح أمين ﴾ . لقد أفهمهم أنه ليس سفيها ولَا كَذابا ، وإنَّما هو من عند الله ، لا يبغى لهم إلا الخير ، وأنه ناصح أمين . ثم حاول أن يستثير فيهم مشاعر الخير ، فذكرهم أنه واحد منهم ، فهل من المستغرب أن يختار الله واحدا منهم لهذا الشأن . ثم وقف موقفا يذكرهم بأخبار القرون الأولى ، بأن الله قد استخلفهم بعد قوم نوح عليه السلام ، لكى يدركوا أنهم مستخلفون فى الأرض : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ ، وأن الاستخلاف نعمة من الله ، وإدراك فضل الله يستلزم التوجه إليه بالشكر ، ومن مصارف الشكر ،

تصريف النعمة فى المصارف الشرعية التى بَيَّنها الله سبحانه وتعالى .

إن الرسول قد ذكرهم بنعمة الاستخلاف بعد قوم نوح ليذكرهم مصير الغابرين من قوم نوح ، الذين رفضوا أن يكونوا عبيدا لله عز وجل وكذبوا رسله ، فاستأصل الله شأفتهم ؛ عَلَّهُمْ يُفِيقُون ويستسلمون لله الواحد القهار .

لقد ذكرهم الرسول بنعمة الاستخلاف عَلَّهُمْ يتذكرون عهدهم مع آبائهم وأجدادهم ، أن يعيشوا على الإسلام وبالإسلام وأن يموتوا على الإسلام .

ومن هذا العرض تبدو أهمية أن يكون للداعى إلى الله ، ثقافة تاريخية صحيحة تعينه على أداء واجب الدعوة إلى الله ، عن طريق تذكير المدعو بأخبار السابقين .

وذكرهم هود عليه السلام ، بنعمة الإسلام التى تتمثل فى كونهم أقوياء ، أشداء زادهم الله بسطة فى الجسم ، ولعل فى هذا إشارة من طرف خفى ، إنه بدلا من أن تستخدموا قوتكم التى متعكم الله بها فى الصد عن دين الله ، والبطش بأولياء الله ، عليكم أن تستخدموها لنصرة دين الله فى الأرض ، وقتال أعداء الله الذين يبغونها عوجا .

وكان من الواجب أن يستجيب الملأ ، لعلهم يفلحون ،. لأن طاعة الله تقترن بالفلاح . وهنا تبدو سنة من سنن الله الكونية الثابتة فى حياة الأمم :

ذكْرُ نعمة الله بالمعنى الذى يعرضه القرآن الكريم ، يؤدى إلى الفلاح ، الفلاح بمعناه الشامل فى الدنيا والآخرة : ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

ولكن النفوس الملتوية ، التى استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر لله ، رفضت أن تكون عبيدا لله عز وجل ، فى الوقت الذى جعلوا أنفسهم عبيدا لبشر أمثالهم ، وعبيدا لعاداتهم وتقاليدهم .

ولم يقف تمردهم وعصيانهم عند هذا الحد ، بل تعداه إلى استعجال العذاب : ﴿ فَأْتِنَا بما تعدنا إنْ كَنْتَ من الصادقين ﴾ .

ماذا يفعل الرسول ، صاحب الدعوة فى مواجهة هذا التمرد على الله عز وجل : ﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إنِّى معكم من الْمُنتَظِرِين ﴾ .

إن الرسول عليه السلام قد بين لهم أن ما يعبدون مع الله ليس شيئا ذا حقيقة ، إنّها مجرد أسماء أطلقوها وآباؤهم ، من عند أنفسهم لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ، ولا لهم عليها من برهان . والتعبير القرآنى ﴿ ما نَزَّل الله بها من سلطان ﴾ تعبير موح عن حقيقة أصيلة ... إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن قليل الأثر ، سريع الزوال ... إن الفطرة تتلقى هذا كله فى استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذى يودعها إياه .

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين .... ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه – سبحانه – سلطان .

ونلمح هنا أيضا هودا واثقا مطمئنا قويا يواجه قومه بالتحدى : ﴿ فانتظروا ، إنِّى معكم من المنتظرين ﴾ .

إن هذه الثقة هى مناط القوة التى يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله ، إنّه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال ، كما أنه على يقين من سلطان الحق الذى معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم نقرأ عرضا آخر لموقف عاد من دعوة هود عليه السلام : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَهٍ غيره ، إن أنتم إلَّا مُفْتَرُون يا قوم لا أسألكم عليه أَجْراً ، إن أَجْرِيَ إلَّا عَلَى الذى فَطَرِنى أَفَلَا تَعْقِلُونْ . ويا قوم استغفروا ربكم ثُمّ تُوبُوا إليه يُرْسِلِ السماءَ عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة

وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إنْ نَقُولُ إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنِّى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، إنِّى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إنّ ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ، ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنّ عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾(١) .

ومن هذا العرض نلمح جملة من الحقائق : أن هودا عليه السلام استخدم أسلوبا آخر فى الدعوة يقوم على التعنيف الذى يتناسب مع الموقف العدائى للقوم من دعوة الله عز وجل ، ويتناسب مع عنادهم ، فقال لهم : ﴿ إنْ أنْتُم إلّا مُفْتَرُونْ ﴾ – ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ – ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ومن هنا يظهر ضرورة مراعاة حال المدعو ، المخاطب بدين الله عز وجل ، فتارة يخاطب باللين ، وتارة يخاطب بحزم .

ومن العرض القرآنى ، يبدو أهمية الإخلاص فى العمل ، وأن يقصد الإنسان بعمله وجه الله عز وجل ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى ﴾ .

وهنا نلمح رسول الله عليه السلام يعرض **منهجا ربانيا إصلاحيا** :

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

---

(١) وهنا يعرض لنا القرآن الكريم مواقف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهم يتلقون الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء والتهديد والإيذاء بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق وفى نصر الله لهم الذى لا شك آت ... ثم تصديق العواقب فى الدنيا – وفى الآخرة كذلك – بثقة الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين .

– أى توحيد الله وعبادته وحده وطلب المغفرة منه سبحانه وتعالى .

– التوبة مع الاعتراف بالذنب بين يديه ، مع الشعور بالندم ، مع العزم على عدم العودة إلى ارتكاب هذا الذنب مرة أخرى .

وهنا نلمح سنة من سنن الله الكونية الثابتة فى حياة الأمم :

إن عبادة الله وحده ، والاستقامة على نظامه وشرعه مع طلب المغفرة منه سبحانه ، والتوبة من الذنوب والمعاصى ، تؤدى إلى فتح أبواب السماء بالرزق والخير والبركة : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ .

ويقابل ذلك سنة ربانية كونية أخرى :

إن الشرك بالله ، وارتكاب الذنوب والمعاصى يعزل القوم عن رحمة الله عز وجل ، ويؤدى إلى محق الرزق ، ومحق البركة ، ويمنع نزول الغيث ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ (الطلاق : ٨ – ١٠) .

ولا تعارض مطلقا بين هذه السنة الكونية ، وبين السنة الكونية الربانية التى تفتح أبواب الرزق على مصراعيها للمشركين الملحدين ، وهذا من قبيل الاستدراج . يُبَيِّنُ ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذْناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾، (الأنعام : ٤٢ – ٤٥) .

وللأسف أن كثيرا من الأمم المعاصرة التى أصابها القحط ، وعصف بها الجفاف ، وأصبحت تتسول رغيف الخبز من على موائد أعداء الإسلام ، وتعيش معيشة ضنكا ، لا تحاول أن تنتفع بهذا المنهج الإصلاحى الربانى ، وبدلا من أن

تستمع إلى الناصحين المسلمين من أبنائها ، وتعود إلى ربها ودينها ، حتى تزول الغُمَّة ، وينزل فضل الله سخيا .

بدلا من ذلك تذهب تستفتى أعداء الله ، لماذا القحط ، لماذا لا ينزل الغيث ، لماذا الفقر ؟ لماذا المعيشة الضنك ؟ فتأتى النصائح المدمرة :

السبب زيادة النسل !!! إذن فلنحارب النسل ؟ ولنعقم الرجال والنساء .

السبب فشل خطة التنمية !!! إذا فلنقترض لاستكمال خطة التنمية ؟

السبب قلة الضرائب !!! إذا فلنأخذ الضرائب على كل شىء حتى على الخمور ، وعلى موائد الميسر ؟

ماذا تكون النتيجة ، خراب ، تدمير ، ضياع ، مزيد من المعيشة الضنك .

وليس أدل على ذلك من أن روسيا ، التى كانت الغلال تفيض عندها على عهد حكم القياصرة ، أصبحت تستورد الآن رغيف الخبز من أمريكا ، بعد أن قل الإنتاج ، نتيجة إلحادهم وكفرهم بالرزاق ذى القوة المتين .

بل إن بلاد العالم الإسلامى التى كانت تفيض منها الخيرات والمحاصيل الغذائية على غيرها من الأمم أصبحت تعتمد فى رغيف الخبز على صدقات الآخرين .

ثم أتبع الرسولُ الكريمُ (هود عليه السلام) البرنامجَ الربانّى الإصلاحى بكلمة تؤكد أن الذين يُعرِضُون عن هذا البرنامج الإصلاحى هم مجرمون .. مجرمون فى حق أنفسهم ، وفى حق أمتهم ، لأنهم ضيعوها وضللوها عن طريق الحق والخير والرخاء .

ومن خلال هذا العرض الربانى لسيرة هود عليه السلام نلمح : القوم يتهمون هودا بالجنون مع إصرارهم على الكفر بالله عز وجل ، والإيمان بالطاغوت ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ . ونلمح أيضا تآمرهم على صاحب الدين ﴿ فكيدُونى جميعا ﴾ .

ونلمح هودا يفاصل قومه ، هذه المفاصلة تتمثل فى :

* البراءة من الشرك والمشركين .

* التوكل على الله .

* ويجىء ذلك بعد البلاغ الكامل غير المنقوص : ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ ومن خلال هذا البيان تبدو حقيقة هامة ليستعرضها أصحاب الدعوات : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ . أى أن الخلق جميعا فى قبضة الله عز وجل ، فالله هو القاهر ، والله غالب على أمره ، وهو المهيمن . فإذا كان الدواب ومنهم القوم الغلاظ الأشداء فى قبضة الله عز وجل ، والله آخذ بناصيتها ، ويقهرها بقوته قهرا ، فما الخوف من هذه الدواب ، وما الاحتفال بها ، وهى لا تسلط على أحد – إن سلطت – إلا بإذن الله !! إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبدا .

ونلمح أيضا :

أن القوم إذ لم يستجيبوا لدعوة الرسل أهلكهم الله ، واستخلف غيرهم : ﴿ ويستخلف ربِّى قوما غيركم ﴾ ، فليحذر الذين يخالفون عن أمر الله ، وإلَّا : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . وهذه سنة كونية أخرى .

ونلمح أيضا :

أن الله يحْفَظ دينه ، وأولياءه وسنته من الأذى والضياع ، ويقوم على الظلمة فلا يفلتون ، ولا يعجزونه هربا ﴿ إنّ ربى على كل شىء حفيظ ﴾ .

وذلك يعنى أن الرزق والموت والحياة بيد الله ، وأنه ليس فى إمكان أحد أن ينفع إنْسَاناً بشىء لم يكتبه الله له ، ولا يسْتَطيع أن يضره بشىء لم يكتبه الله عليه .

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منّا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

هذه هى عاقبة الإيمان وجنده فى الدنيا ، نجاة من العذاب الشديد ، بل وتمكين لهم فى الأرض ، إمضاء لسنة ربانية كونية :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض

كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[1] .

أما الكفر فله شأن آخر :

﴿ وتلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رسُلَه واتَّبَعُوا أمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بُعْداً لِعَادٍ قَومِ هُودْ ﴾

ثانيا : ثمود قـوم صالح :

لقد رفض الملأ من القوم أن يكونوا عبيدا لله الواحد القهار ، ورفضوا إخضاع حياتهم لنظام الله وشرعه ، رغم البينة التى شاهدوها وعاينوها :

﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ .

ورغم أن صالحا عليه السلام نصح قومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصائر الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين : ﴿ واذكروا إذ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ ، وبوَّأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكُرُوا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ولكن لماذا رفض الملأ أن يكونوا عبيدا لله ؟ وَفضَّلُوا أن يكونوا عبيدا لعبيد أمثالهم ؟ إنَّه الخوفُ على السلطان ، إنهم لا يؤمنون بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين . ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد .

موقف عجيب للملأ من القوم ، إنَّهم لم يؤمنوا ، وكان من الواجب عليهم

---

(١) النور : ٥٥ .

أن يؤمنوا ، ولما لم يستجيبوا ، كان من الواجب أن يُخَلّوا بين الناس وربهم ليختاروا دينهم ؛ ولكن أنَّى للقلوب المريضة أن تعرف واجبها . لقد اتجهوا إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد ، لأنَّهُم لا يطيقون أن يروا الحق أمامهم متحركا ، لأنَّه يذكرهم بباطلهم وشركهم ، إنَّهم لا يطيقون أن يروا الحياة مستقيمة على أمر الله لأن ذلك يحول بينهم وبين تحقيق شهواتهم ورذائلهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، قالوا : إنَّا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ .

وهنا نشاهد ، أن الضعاف لم يعودوا ضعافا ، لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم ، إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ، وماذا تجدى السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين .

وهكذا تبدوا أهمية الإيمان بالله ، إنه يصنع المعجزات ، وهو الذى يعصم صاحبه من أن يقع فى ربقة الطاغوت .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم (سورة هود ٦١ : ٦٨) نلمح صالحا يسلك طريق أصحاب الدعوات فى دعوة قومه ، تماما كما فعل هود عليه السلام وغيرُه ، فذكر قومه نعمة الاستخلاف والتمكين فى الأرض ممثلا فى :

الجنات والعيون والزروع والنخل ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، كما قدم لهم برنامجا ربانيا إصلاحيا يحقق لهم السعادة فى الحياة الدنيا والآخرة ، كما نصحهم بأن لا يتبعوا الفئة المفسدة ، التى تبغى أن لا تستقيم الحياة علىَ منهج الله عز وجل : ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ .

ولكن النفوس المريضة ، قد استعصت على العلاج ، فإذا هم يتهمون صالحا بأنه ساحر وأنه وجه شؤم ، ويتهمونه بأنه بشر ، ولا يجوز لبشر مثلهم أن يُصْطَفَى للرسالة ، ونسوا أن الله ﴿ يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ . ونسوا أن هذا الذى يعترضون على بعثته ، هو الذى كان مَرْجُوًّا فيهم ، ﴿ قد كنت فينا مَرْجُواً قبل هذا ﴾ . إن هؤلاء المتمردين ، عاداتهم وتقاليدهم أعز عليهم من إسلامهم ، أعز عليهم من ربهم خالقهم ورازقهم : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ .

ورغم البيان ، والبلاغ الكامل ، ورغم البينة فإنهم بقوا على موقفهم ، وتمردهم . إذن ليس الدليل هو الذى ينقص الملأ للتصديق ، ولكن الإصرار على أن لا تسير الحياة كلها على منهج الله عز وجل .

ولم يقف صد الكافرين عن دين الله عند حد النيل بألسنتهم من النبى الكريم ودعوته بل تعداه إلى التخطيط لقتل رسول الله ، متصورين أنه بقتل صاحب الدعوة سينتهى أمر هذا الدين . وهذا من باب الوهم ، وأيضا من باب الاستدراج ، ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله ، وإنَّا لصادقون ﴾ .

تسعة يخططون لأمة ، يخططون لها بالفساد ، يضللون أمة بأسرها ، والمدينة من ورائهم ، يسوقونها إلى مصيرها المحتم ، وكان عاقبة الانقياد ، انقياد هذه الأمة وراء القلة المفسدة التى تخطط ضد الأمة ورسولها صالح عليه السلام والذين آمنوا معه ، أن شملهم عذاب الله ، أرسل عليهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

وفى هذا درس حقيقى رادع لكل أمة ، وكل شعب ، وكل تجمع ، بل وكل أسرة تنقاد وراء المفسدين ، وهم قلة فى الغالب ، قلة تقود الكثرة إلى الهاوية[1] .

---

(١) ويوم القيامة يتبرأ الذين كفروا من أتباعهم : ﴿ إذ تبرأ الذين أُتبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كَرَّةً فَنَتَبَرأ مِنْهم كَما تَبَرأوا مِنَّا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بِخَارِجِينَ من النار ﴾ .

وفى هذا درس للشياطين الخرس الذين يشاهدون التآمر لذبح الحق وأهله ، ثم لا يحركون ساكنا .

وفى هذا درس للشياطين الخرس الذين وقفوا موقف المتفرج على هذه الفئة المُضِلّة وتركوها تتآمر دون أن تفعل شيئا .

وفى هذا درس لمن يتآمرون على أصحاب الدعوات ، وعلى جند الإسلام متصورين أن الله لا يراهم ، ولا يدرك كيدهم وتآمرهم ، وأنه محيط بهم .

لقد خطط قوم صالح لقتل صالح وأهله من المسلمين الموحدين ،فماذا كانت نتيجة التخطيط ؟ يقول الحق الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾.

ويورد الله سبحانه وتعالى الأسباب التى استحق بسببها هؤلاء القوم الخزى والعذاب فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى ﴾ .. سبحان الله !!! قوم تُعْرَضُ عليهم الهداية فيرفضونَهَا ، إنَّه يعرض عليهم الخروج من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، ولكنهم يرفضون ، ويفضلون العمى على الهدى ، يفضلون الظلمات على النور ، وهذا واقع الضالين فى عالمنا المعاصر . وصدق الله إذ يقول : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

وماذا كانت النتيجة :

﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ . يعنى أن الله لم يظلمهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ثالثا : مدين قوم شعيب :

لقد سلك شعيب عليه السلام نفس الطريق الذى سلكه هود وصالح عليهما السلام ، وواجه نفس المواقف التى واجهها الرسولان الكريمان ، فالرسول الكريم عرض على قومه نفس القضية التى عرضها هود وصالح : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

كما أفهمهم أن شهادة أن لا إله إلا الله لها مقتضيات : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ ، ﴿ أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد . قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ﴾ .

لقد رفض القوم أن يكونوا عبيدا لله عز وجل – كما رفضوا الخضوع لنظامه وشرعه . تماما كما فعل عاد وثمود . فاستغلوا تحكمهم فى طرق التجارة والسلع التجارية فى تطفيف الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ، والإفساد فى الأرض ، كما كانوا يصدون الناس عن دين الله .

لقد كان القوم ظلمة ، يفتنون المؤمنين عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ، لقد كان القوم يكرهون للحياة أن تكون مستقيمة على منهج الله . لماذا ؟ لأن ذلك يذكرهم بجرائمهم ويذكرهم بانحرافهم ، ويذكرهم بعبوديتهم لشهواتهم وشياطينهم كما أن قيام حياة المجتمع المسلم على منهج الله ، يحول بين الظلمة والانحراف ، إذ كيف ينحرفون ، والمجتمع المسلم يجتث الرذيلة ، ويحول بين الناس وبين ارتكاب المحرمات ، ولو فرض أن ظالما أو فاسقا قد ارتكب جرما أو محرما ، أقيم عليه الحد . ففى المجتمع المسلم ، دين الله مصان ، وأعراض الناس وأموالهم مصانة ، وهذا ما لا يطيقه المنحرفون إذ كيف يحال بينهم وبين الرتع فى أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ؟؟ **لقد كان أهل مدين فسقة فجرة والفسق**

والفجور لا يعيش فى مجتمع يقوم على نظام الله وشرعه ، ولكنه يقوم فى مجتمع معوج متمرد على دين الله عز وجل . وفى مثل هذا المجتمع لا يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم ودينهم .

لهذا جند الكفار والمشركون ، من قوم شعيب إمكانيات العصر التى مكن الله لهم بها فى الأرض ، من مال وبنين وجنات وعيون ، وكثرة فى العدد فى سبيل الصد عن دين الله .... لقد جند هؤلاء المشركون كل أجهزتهم الإلحادية لمطاردة الحق على أرضهم والترويج لباطلهم ، والحيلولة بين الناس وبين الدخول فى دين الله .، بل ومحاولة فتنة الناس عن دينهم .

وهى صورة مكررة فى كل زمان ، فالجاهلية تستخدم كل إمكانياتها لصرف الناس عن الدين الحق ، واجتيالهم عن إسلامهم ، سواء عن طريق الإذاعة المرئية أو المسموعة ، أو عن طريق المجلة أو الجريدة ، أو عن طريق المنهج التعليمى المعوج والعجيب أن هؤلاء الكافرين حريصون دواما على التخطيط لإفساد المجتمع وجعله مجتمعا معوجا بعد أن كان صالحا ، لأن المجتمع المعوج يكون من السهل السيطرة عليه ، فالناس يقادون فيه من شهواتهم : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ .

لقد حاربوا المنادين بالعودة إلى المنهج الربانى ، لقد حاربوا كل محاولة للإصلاح وترصدوا كل حركة تدعو إلى نظافة المجتمع ونظافة معاملاته . وقطعوا الطريق على كل من يقيم معاملاته على الأمانة ونظافة اليد والعدل وإعطاء الناس حقوقهم . وكانوا يعلمون أن الفئة المؤمنة التى تنادى بالأمانة والعدل فى المعاملات ، قامت بذلك نتيجة إيمانها بالله ، فجندوا الطاقات والإمكانيات المادية للصد عن سبيل الله ، ومحاربة أتباع الرسل ، بإشاعة الأكاذيب حولهم .

وهنا يبدو القوم وقد أبوا أن تستقيم الحياة على منهج الله ، ليس هذا فحسب ، إنَّما ذهبوا يشككون فى كون الإسلام نظام حياة اقتصادى وسياسى واجتماعى .... لقد نسى القوم أن القضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة بعد قضية

العقيدة والدينونة . أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة .

كان أهل مدين وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال – وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها ، ويتحكموا فى طريق القوافل ، ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى سورة هود (آية ٨٤ – ٩٥) . ومن ثم تبدو علاقة التوحيد والدينونة لله ، بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس . وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء ...

إن المعاملات والأخلاق لابد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة ... هذه هى نظرة الإسلام . وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم .

وهى تستند إلى ذلك الأصل الثابت فينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ، كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها . فلا يكون المتحكم فى أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الرعى أو يعيشون على الصناعة . إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها فى التصور الأخلاقى وفى قواعد المعاملات الأخلاقية . حين يصبح مصدر التشريع للخياة كلها هو شريعة الله ، وحيث تصبح قاعدة الأخلاق هى إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقى عقابه ، وكل ما يَهْرِفُ به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللتطور الاجتماعى للأمة يصبح لغوا فى ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية[١] ....

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩١٧ ، ١٩١٨ .

وواصل المشركون عنادهم وتحديهم لرسولهم : ﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ .

وهو رد واضح التهكم ، فهم لا يدركون أو لا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة ، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة ، وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم – إلا من رحم ربى – لا يفترقون فى تصورهم ولا فى أفكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التى تعيشها البشرية اليوم ليست أفضل ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى . وأن الشرك الذى كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذى تزاوله البشرية بما فيها أولئك الذين يقولون أنهم يهود أو نصارى .. الخ ، فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر ، والشريعة والتعامل ، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره .. وهذا هو الشرك فى حقيقته وأصله .

إن بيننا اليوم – ممن يقولون ، أنهم مسلمون من يستنكرون وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعات العالم يتساءلون أولا فى استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصى ؟ ما للإسلام والعرى فى الشواطى ؟ ما للإسلام وزى المرأة فى الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأى سبيل ؟ وما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذى يفعله المتحضرون ؟ ... فأى فرق بين هذا السؤال وبين سؤال أهل مدين : ﴿أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ .

وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين فى الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة فى الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعى ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت فى الاقتصاد تفسده ، وينكرون على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلا - ويعدونها تخليطا من أيام زمان .

فلا يذهب بنا الترفع كثيرا عن أهل مدين فى تلك الجاهلية الأولى . والبشرية اليوم فى جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعى العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة فى الله ، والسلوك الشخصى فى الحياة والمعاملات المادية فى السوق ... تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود .

وما تستقيم عقيدة التوحيد ، توحيد الله فى القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض ، فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك فى قلب واحد .

ويبدو أيضا الحقيقة الناصعة الواضحة :

(أ) أن الرزق بيد الله .

(ب) وأن الداعية لابد وأن يكون صورة حية من الإسلام الذى يدعو إليه :
﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

(ج) وأن التوفيق بيد الله عز وجل .

(د) ومن هنا تأتى أهمية التوكل عليه والإنابة إليه .

واستمر الرسول الكريم فى دعوته ، فها هو يقف موقف الناصح الأمين :

(أ) يذكرهم بأخبار السابقين علهم يتذكرون ويفيقون ويرجعون : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

(ب) ويقدم لهم برنامجا ربانيا إصلاحيا يكفل لهم العيش الطيب فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ .

ولكن كان قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وهذا طبيعى لأن الفتن تعرض على القلوب كأعواد الحصير ، فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى يصبح كالكوز مجخيا ، لا أثر فيه للخير ، وهكذا كانت قلوب الملأ من قوم شعيب عليه السلام : ﴿ قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنَّا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

وهنا نلمح طغيان الطاغوت ، إنَّهم لا يعرفون المنطق ، ولا يعرفون الوقوف عند الحدود ، لا يعرفون إلا منطق البطش والقتل والإرهاب ، إن شعيبا لم يرفع سيفا فى وجوههم ، ولم يتآمر عليهم ، ولم يقاتلهم حتى يقاتلوه بهذا التآمر على حياته وحياة الصف المؤمن .

إن الطغاة يلجئون إلى كل الأساليب الخسيسة لإسكات صوت الحق ، ولصرف الداعية عن دعوته ، فإذا عجزوا عن ذلك باللسان ، استخدموا أيديهم ؛ لقد هددوا شعيبا بالقتل رجما ، لأنه ضعيف فى تصورهم :

وهذا دليل على أن الطريق ، طريق أصحاب الدعوات ، ليس مفروشا بالورود ... إنه ليس سهلا ، إنه طريق طويل ملىء بالمشاق والابتلاءات ، ولكن فى نهايته جنة عرضها السموات والأرض .

وكان الرد الذى ينم عن خلق عال ، وأدب رفيع ، وثقة فى الله لا حد لها : ﴿ قال يا قوم ، أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إنَّ ربى بما تعملون محيط ﴾ .

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ .

إنه يطلب منهم انْتِظار حكم الله بين الفريقين ، الفريق المؤمن والفريق الكافر .

ولكن الطاغوت لا يقبل أبدا بالتعايش مع الإيمان فى مكان واحد ، حتى لو قبل أنصاره وجنده ذلك ، حتى لو انعزل جُندُ الإيمان وتركوا الكفر لحكم الله عز وجل ... لماذا ؟؟ لأن وجود جماعة مسلمة – فى الأرض – تكفر بالطاغوت

وتؤمن بالله ولا تتحاكم إلا إلى شرع الله يزعج الطاغوت ....

ومن هنا فإن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليها المعركة مع الباطل ... إنها سنة الله لابد أن تجرى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾.

هكذا فى تبجح سافر ، وفى إصرار على المعركة ، لا يقبل المهادنة والتعايش .

إلا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد ... لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . نقطة المسالمة والتعايش – على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يدين للسلطان الذى يشاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين – وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط أو أى تهديد من الطواغيت ... وإلاتنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه ..... فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارها أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ، ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

﴿ قال : أو لو كُنَّا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجَّانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها – إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ..

وفى هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ومذاقه فى نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ، كذلك نشهد فى قلب الرسول ذلك المشهد الرائع . مشهد الحقيقة الإلهية فى ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .

﴿ قال : أو لو كنا كارهين ؟ ﴾ ..

يستنكر تلك القولة الفاجرة : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .. يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها ؟!

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ .

إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية التى لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله ... إن الذى يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت !! أو مؤداها - على الأقل - أن لملة الطاغوت حقا فى الوجود ، وشرعية فى السلطان وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله ... وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام ، شهادة الاعتراف براية الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة .

كذلك يستنكر شعيب - عليه السلام - ما يتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاهم الله منها :

﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ ..

وما من شأننا أصلا ، وما ينبغى لنا قطعا أن نعود فيها ... يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة التى تعلن خروجها عن سلطانها ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة

على الحياة والمقام والرزق – إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة . تكاليف فى إنسانية الإنسان ذاته ، فهذه الإنسانية لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان – وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟ ... وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ ... وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟ .

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعانى الرفيعة ... إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس – فى حكم الطواغيت – أموالهم التى لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج – كما يكلفهم أولادهم إذ يُنَشِّئُهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق ما يتحكم فى أرواحهم وفى حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته . ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية ... حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، سواء فى صورة الغصْب المباشر – كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ – أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا للشهوات تحت أى شعار . وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أى ستار ... والذى يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته فى حكم الطواغيت من دون الله ، إنما يعيش فى وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع[1] .

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف فى النفس والعرض والمال ... ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهى أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة فضلا على وزنها فى ميزان الله .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة : ﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها .... ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٣١٩ .

ولكن شعيب بقدر ما يرفع رأسه ، وبقدر ما يرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه ... بقدر ما يخفض هامته ، ويسلم وجهه فى مواجهة ربه الجليل ، الذى وسع كل شىء علما . فهو فى مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشىء أمام قدره . ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

و ﴿ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ﴾ ..

إنَّه يفوض الأمر لله ربه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ... إنَّه يملك رفض ما يفرض عليه الطواغيت ، من العودة فى ملتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته ... ولكنه لا يجزم بشىء عن مشيئة الله به وبهم .. فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون . وربهم وسع كل شىء علما . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله . والأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتألى على شىء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكيل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق :

﴿ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ﴾ ... وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلى الحقيقة ، حقيقة « الألوهية » فى نفس ولى الله ونبيه ..

إنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان ، ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه والتى ليس منها مفر . إلا بفتح من الله ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾ .

إنَّها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير ... إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل ... تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب ... إنَّهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذين أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمخض الحق والباطل . ويقفان وجها لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف .. وهكذا كان ... ﴿ فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ ..

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة وبسط الأيدى بالأذى والفتنة ..

ويَرُدُّ السياق على قولتهم : ﴿ لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذاً لخاسرون ﴾ .. وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة !! فيقرر فى تهكم واضح - أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنَّما كان من نصيب قوم آخرين :

﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ﴾ ..

ففى ومضة ها نحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار ؟؟

ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال . من رسولهم الذى كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم فى الغابرين :

﴿ فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟؟ ﴾ ..

إنَّه من مِلة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما ملة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها فى هذا الدين ، ولا وزن لها فى ميزان الله ... فالوشيجة الباقية هى وشيجة هذا الدين ، والأرتباط بين الناس إنَّما يكون فى حبل الله المتين ...

* * *

الفصل الثالث

قوم سبأ
وسيرة سليمان عليه السلام

فى فترة ما من الزمان ، قامت فى جنوب الجزيرة العربية ، دولة سماها القرآن الكريم « سبأ »[1] ﴿ وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين ﴾ . وكان يحكمها ملكة ﴿ إنِّى وجدتُ امرأةً تملكهم ﴾ . وكان يعاون الملكة مجلس من أصحاب الجاه والسلطان « الملأ » .

هذه الدولة السبئية ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ ، بما فى ذلك مقومات القوة المادية ﴿ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ .

ورغم التقدم المادى والقوة الحربية التى كان عليها أهل سبأ – ورغم أنهم قد يكونون من أحفاد الناجين مع نوح من الطوفان ، أو من أحفاد الناجين مع هود أو مع صالح عليهم السلام ، أى أنَّهم ذرية قوم مسلمين – ومن هنا كان التمكين لهم فى الأصل بسبب إسلامهم لله عز وجل – إلَّا أنَّهم قد ارتكسوا فى الجانب الروحى ، وذلك بأنَّهم أشركوا بالله عز وجل ، وكانوا يسجدون للشمس من دون الله عز وجل .

ومن حسن حظ هؤلاء القوم ، بعثة سليمان عليه السلام فى عصرهم ، ودعوة سليمان عليه السلام لملكة سبأ وقومها للدخول فى دين الله عز وجل ﴿ إنَّه

---

(١) يذهب المشتغلون بالتاريخ من المحدثين إلى أن دولة سبأ قد قامت فى منتصف القرن العاشر وانهارت فى نهاية القرن الثانى قبل ميلاد المسيح . وقسموها إلى قسمين : دولة سبأ الأولى (٩٥٠ – ٦٥٠ ق . م) وكانت عاصمة الدولة « صرواح » . وهى الفترة التى حكمت أثناء جزء منها ملكة سبأ ، وقام أثناءها حكم الدولة الإسلامية التى كانت عاصمتها « بيت المقدس » على عهد داود وسليمان عليهما السلام .

ودولة سبأ الثانية (٦٥٠ – ١١٥ ق . م) ، وكانت عاصمتها فى « مأرب » .

من سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ، أَلَّا تَعْلُو عَلَيَّ وأْتُونى مُسْلِمِينْ ﴾ .
ولما كان كل نبى قبل محمد ﷺ يبعث فى قومه خاصة - فذاك يعنى أن سليمان عليه السلام كان نبيا عربيا ، وأن الدولة الإسلامية فى عهده قد امتدت لتشمل بلاد الشام وجزيرة العرب .

ولما كانت العلاقة بين ملكة سبأ[1] وسليمان عليه السلام ، قد شوهها المستشرقون اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، فذلك يوجب علينا إعطاء نموذج لذلك التشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ رسول كريم هو نبى الله سليمان عليه السلام ، وملكة أسلمت لله رب العالمين لكى ينتبه المسلمون إلى ما يدبر لهم ولدينهم ، فينهضوا بالتكليف ويتصدروا لهذه الهجمة الشرسة على دين الله ورسله عليهم السلام .

ثم نقوم بعد ذلك بالتصحيح لهذه الأخطاء التى أوقعها أعداء الإسلام وغيرهم من أبناء المسلمين فى تاريخ الإسلام .

النموذج

عميد مايسمى « الأدب المصرى » توفيق الحكيم .

يكتب مسرحية يسميها « سليمان الحكيم » [2] يصور فيها جانبا من تاريخ سليمان عليه السلام وعلاقته بملكة سبأ ، اعتماداً على ألف ليلة وليلة ، والتوراة المزورة ، دون الاعتماد على القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ ، فيقع فى حرمة الاعتداء على الله والنبوة والرسالة ، بل ووقع فى حرمة الطعن فى عقيدة وخلق نبى كريم هو رسول الله سليمان عليه السلام فالكاتب يصور سليمان (بدون عليه السلام) شخصا مغرما بالإيقاع بالنساء ومن هؤلاء ملكة سبأ فأرسل إليها لا ليدعوها إلى الإسلام ولكن لتعرض أمرها عليه[3] ، ويوقع بها وتستجيب الملكة لأمر سليمان ، وفى القصر تصدع الموسيقى ، وترفع الكؤوس ، وترقص الراقصات[4] ، ويصدر سليمان

---

(١) سبأ : أرض باليمن مدينتها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط الأولى ١٩٧٤ .

(٣) صفحة ٢٧ من المسرحية « سليمان الحكيم » .

(٤) صفحة ٨٠ .

أمره فينصرف الجميع وينفرد بامرأة أجنبية عنه هى ملكة سبأ (بلقيس) ، ويبثها مشاعره وحبه وبعد قليل من الزيارة ، يدرك سليمان — كما زعم توفيق الحكيم — أن ملكة سبأ تحب شخصاً آخر ، وأنه لا سبيل إلى قلبها ، ومن هنا لجأ سليمان إلى استشارة أعوانه ومنهم الجن ، فأشاروا عليه بحيلة عجيبة لقهر ملكة سبأ وإجبارها على الاستسلام لسليمان وتفشل المحاولة ، ويندم سليمان ، ويموت حزينا مهموما لأنه لم يفلح فى الاستحواذ على قلب امرأة .

وهكذا وقع توفيق الحكيم فى حرمة الاعتداء على دين وخلق نبى كريم ، **وامرأة** مسلمة ، بل ووقع فى حرمة الاعتداء على دين الله عز وجل . **فالكاتب يصور العلاقة** بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ على أنها علاقة غرامية . ويتناسى رسالة سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ والتى وردت فى القرآن الكريم ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** ﴾ (١) ونسى أو تناسى أن ملكة سبأ وصلت بيت المقدس وقومها لتعلن : ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ (٢) ويصور الكاتب الدين على أنه فن سماوى من صناعة المثالين والمصورين . وهذه هى لقطات من كتاب توفيق الحكيم ، سليمان الحكيم .

ويصور الكاتب مازعم حفل استقبال يقيمه سليمان (بدون عليه السلام) لملكة سبأ ، صفحة ٨٠ [موسيقى رائعة ... وأكواب وشراب ... وجوقة من الراقصات الجميلات يرقصن رقصات غريبة] ، وبعد انتهاء الرقص (يشير الملك بيده فينصرف الجميع ولا يبقى غيره مع بلقيس وحدهما) ، **فتقول له ملكة سبأ : أرى** أنك تسرع فى الانفراد بى ... فيرد الملك (وهو يرمقها طويلا) **لطالما انتظرتك .**

وهكذا يصور الكاتب ، سليمان عليه السلام بأنه مغرم بملكة سبأ ، **ولا حرج** فى أن يخلو بامرأة أجنبية ليس معها محرم(٣) ، ولم يقف الأمر عند هذا ، **فهاهو الكاتب** يخترع كلاما ويدسه على لسان سليمان عليه السلام ، **فيقول سليمان لملكة سبأ وهى** امرأة أجنبية عنه : « دعينى أطالع صفحة وجهك مليا ... أنت يامن **شممت عطرك** وبيننا بحار من رمال .... آه لو استطعت أن أستل بيدى قلبك من بين جنبيك

---

(١) سورة النمل آية : ٣٠ ، ٣١ . (٢) سورة النمل آية : ٤٤ .

(٣) هذا هو عميد أدبكم ياأمة العرب ، اخترع التهم اختراعا ونسبها إلى النبى الكريم وصدق الله القائل ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾ .

وألقى به طعاما إلى الهدهد (صفحة ٨٠ ، ٨١) ويستمر الحوار وترد :

ــ بلقيس : « شكرا لك ياسليمان » .

ــ سليمان : ماأسعدنى الآن بذكرك اسمى هكذا .... (صفحة ٨٤) .

ويصور الكاتب توفيق الحكيم ــ وما هو بموفق وما هو بحكيم ــ سليمان عليه السلام حزينا مهموما يلقى سؤالا على أحد مستشاريه : « هل أحببت يوما ... هل عرفت الحب » (صفحة ٨٧ ، ٨٨) وتُسفر الاستشارة عن سليمان عليه السلام ، وقد أسلم زمامه للجنى لقهر قلب ملكة سبأ ، لتفتحه لسليمان عليه السلام ، ويزعم الكاتب أن سليمان عليه السلام عنده جهاداً وجلاداً (صفحة ٩٥) وفى المنظر الرابع فى المسرحية التى كتبها توفيق الحكيم ، يبدو حوار بين الصياد والجنى .

ــ يقول الصياد : « إن عملنا ومجدنا خليقان أن يُنطقا الجماد تسبيحا بحمدنا » .

وهكذا جعل عميد الأدب المصرى ، المخلوق بمنزلة الخالق وصور عمل الجنى لتهيئة الطريق أمام سليمان لغزو قلب ملكة سبأ ، أنه عمل عظيم (صفحة ١٠١) . ليس هذا فحسب بل يذهب بالحوار إلى حد أن يطلب الجنى من الصياد أن يؤمن به : « آمنت بى الآن ؟ فيرد الصياد : كل الإيمان » (صفحة ١٠٦) ويذهب الجنى إلى أبعد من ذلك : « أومن بى أيها الأحمق ... أسلم أمرك لى وكفى » (صفحة ١٠٦) .

وفى موضع آخر يصور الكاتب سليمان عليه السلام ينفرد بملكة سبأ على بساط الريح (صفحة ١٠٥) وفى القصر يزعم توفيق الحكيم إلى الموقف التالى : (ملكة سبأ تكشف عن ساقيها وكأنها تخاطب نفسها) كيف أجتاز هذه اللجة ؟

ــ سليمان : (ضاحكا) إذا أذنت لى فإنى أحملك .

ــ بلقيس : وأنت ألا تخاف البلل ؟

ــ سليمان : فى سبيلك لا أخاف شيئا .

ــ بلقيس : تريد حملى على ذراعك فوق هذا الماء ؟

ــ سليمان : أرجو ذلك .

ــ بلقيس : كما حملتنى على بساطك فوق هذا الهواء .

ـــ سليمان : إنها لسعادة كبرى أن يكون لذراعى حظ بساطى .

.... سليمان (يحملها ويجتاز أرض المكان نحو الفرش ... ويقول : عسى أن تغفر لى هذه الأكذوبة الصغيرة)[١] (صفحة ١٠٧ ـــ ١٠٨) .

ـــ سليمان : أريد أن أقرأ فى عينيك جريمتى عندك ، (صفحة ١١٠)

ـــ بلقيس : يجدر بك أن تقول الصدق ...

ـــ سليمان : آه إن الصدق مخيف أحياناً (صفحة ١١١) .

ـــ بلقيس : أخبرنى ... أحقا ياسليمان أن لك من النساء ألف زوجة .

ـــ سليمان : (شارد الفكر) نعم ، بلقيس : جميلات كلهن ، سليمان : نعم .

ـــ بلقيس : من بين نساء كل بلد من بلاد الأرض جاءت إليك أجملهن : نبيات الجمال يفدن إليك برسالة الحسن [٢] .

ـــ سليمان : أقرأت نشيد إنشادى .

ـــ بلقيس : أو نسيت أن يد حكمتك قد حرصت على أن تدسه بين وسائدى ؟

كيف لا أقرؤه ؟ إنى لم أستطع النوم البارحة حتى تلوته مرات ومرات ... آه ماأعذب هذه الكلمات ، أسقنى قبلات فمك ، فحبك أشهى من الخمر ... وعطرك طيب الشذا واسمك ملء الفضاء عطر ... لقد بحثت فى فراشى الليالى الطوال عمن يهواه قلبى ، فما وجدت إليه السبيل . (صفحة ١١٥) .

ـــ سليمان ناظرا إليها : ماأجملك ياحبيبتى ... ماأجملك أنت بين النساء ..... (صفحة ١١٦ وما بعدها) .

ـــ سليمان (يتأمّل جسمها) : ماأجمل قدميك وساقيك ... إنى أحبك أشهى من الخمر [٣] ... (صفحة ١١٧) .

(١) هكذا صور الخيال المريض لعميد الأدب المصرى ، الرسول الكريم سليمان عليه السلام ، بهذه الصورة التى يتنزه عنها . وهذا منهج خطر ، لأن الكاتب اخترع التهم اختراعا ولصقها بنبى الله سليمان عليه السلام . وفى هذا أيضا حض للقارىء على الجريمة ، وتبرير الخلوة بالأجنبيات والسطو على أعراض النساء . وفيها تعويد القارىء على الكذب ، كما يزعم أن النبى اتخذ التمكين الربانى وسيلة للتباهى به أمام بلقيس .

(٢) وهذا كذب وافتراء على دين الله فلا يوجد نبيات فى الإسلام ، إن الخيال المريض للكاتب أوحى إليه بهذا التخريف الذى يلصقه بدين الله .

(٣) إننا نبرأ إلى الله مما قاله توفيق الحكيم ، وكان بودّنا أن لا نورد هذه المقتطفات على صفحات كتابنا ، لولا =

ـــ بلقيس : (كأنها تمد شفتيها لشخص وهمى) يسيل سائغا من أجل حبيبى ... ويقطر صافيا بين شفتيه (صفحة ١١٨) .

ـــ سليمان : لأنك لا تشعرين بوجودى قربك (صفحة ١٢٠) .

ـــ سليمان : وماذا تهمنى قلوب نساء الأرض جميعا مادام هنالك قلب واحد لا يستطيع صوتى أن يبلغ أعتابه . (صفحة ١٢٢) .

حوار بين الجنّى وسليمان :

ـــ سليمان : إنك لتزين لى الأفق بأشياء تكاد تعمى بصرى . فلا أميز مما ينبغى مما لا ينبغى .

ـــ الجنى : الأمل يامولاى الأمل ... ماضرك لو وضعت فى أملك ، وتركتنى أعمل حتى آكل ...

ـــ سليمان : حقا ... لست أملك من الأمر غير ذلك ، رضيت أم كرهت ... افعل بى ماشئت وسأنتظر ... مشاهدا لما تستطيعه قدرتك ... متربعا بما تأتى به عبقريتك[1] (صفحة ١٣ ـــ ١٣١) .

ملكة ؟

ـــ شهباء : هذا حقا أمر مروع يامولاتى ... أجل ضحكاته كل مساء ... وهو يشرف عليك من هذا الدهليز ... ويقف ينظر إليك لحظة وأنت تبكين ... ثم ينفجر ضاحكا . ذلك الضحك الراعد القاصف ... (صفحة ١٣٦) .

ـــ بلقيس : ماكنت أحسبه يقدم على مثل هذا ...

ـــ شهباء : إن الذى فى يده القدرة يقدم على كل شىء وينسى كل شىء . (صفحة ١٣٧) .

ـــ سليمان : (ينظر إلى بلقيس ويضحك طويلا ...)[2] .

= ضرورة ، لكى يقرأوا الأدب !!! الذى خلّفه لهم عميدهم الراحل ، ولكى يدرك القارىء إلى أى مدى وصل الاعتداء على حرمة الأنبياء والرسل وتشويه مسيرتهم ، فماذا بقى من حرمة القدوة والأسوة ؟؟ ولكى نقدم للقارىء دليل الاتهام الذى نوجهه إلى الكاتب .

(١) هكذا حول الكاتب نبى الله سليمان شخصا بلا إرادة وقد أسلم زمام أمره إلى أحد الشياطين . فهل هذه هى الأمانة ؟ هل هذا هو الأدب ؟

(٢) هكذا يصور الكاتب سليمان عليه السلام مجرما وغدا . لا حول ولا قوة إلا بالله .

المنظر السادس صفحة ١٥٤ :

(سليمان مطرق حزين ، وأمامه الكاهن صادوق)

ــ صادوق : لا تحزن أيها النبى ولا تلق بالا إلى ماحدث . (صفحة ١٥٤) إنك لم ترتكب خطيئة ... ثق أيها النبى بحقيقة نبوتك المنزهة على الخطايا . (صفحة ١٥٥) .

ــ سليمان : لقد صنعت أمراً لا ينبغى أن يصنعه نبى ...

ــ صادوق : ألأنك أحببت امرأة (صفحة ١٥٥) .

ــ سليمان : أيها الكاهن لماذا تحاول دائما أن تبرر خطئى ؟

ــ صادوق : هذا عملى .

ــ سليمان : مرحى مرحى لنبى تحتاج فعاله إلى دفاع (صفحة ١٥٦) .

ــ صادوق : أوتريد أن يعلم الناس أنك تخطىء مثلهم ...

ــ سليمان : بل أريد أن يعلموا أنى أخطىء أحياناً أكثر منهم ... وأنى لم أمنح نفسا من جوهر نفوسهم ... وإنى لست خيرا منهم فى شيء وفى ذلك الندم الذى يهز كيانى ، وفى التماس التوبة الصادقة والتوجه إلى ربى طالبا المغفرة .

ــ صادوق : إن قولك هذا خطير أيها النبى ؟ إنما النبى هو الصورة المثلى التى لا يجب أن ترى فيها الأعين عوجا .

ــ سليمان : آه لكم أيها الكهنة ... بل أيها الفنانون المثالون المصورون إلى متى تعتبرون النبى تحفة فنية خارجة من بين أياديكم ...

ــ صادوق : مادمت تريد الصدق ياسليمان فلأقل لك أنك قد صدقت ... وأن الدين فن[1]. فن علوى ومن أجل هذا وجب أن ترعى فيه أصول الفن : الجمال والكمال .... (صفحة ٥٩) .

ــ سليمان : كلا ياصادوق ... إن الدين هو حقيقة القلب الإنسانى ... بما فطر عليه من خير وشر ... (صفحة ١٥٩) .

ــ الصياد : أنا الصياد الحقير .

(١) وهكذا بعد أن اخترع الكاتب التهم اختراعاً ونسبها إلى نبى الله سليمان عليه السلام ، يلجأ إلى شيء آخر وهو تبرير الجريمة وهو أن السطو على أعراض النساء وحب المرأة الأجنبية ليست جريمة ...، وأن التوجه إلى الله بطلب المغفرة « قول خطير » ويزعم أن الرسل يخطئون أكثر من الذين لم يختاروا للرسالة ... وهذا يصادم منهج الله الذى يختار الأنبياء فى خيار القوم ويزعم أيضا أن الدين فن سماوى .

ـــ سليمان : أنت وحدك الذى تملك محاكمة سليمان العظيم لأنك تحمل قلبا نقيا ؛ (صفحة ١٦٤) .
ـــ سليمان : لو كنت أستطيع أن أنزل بنفسى العقاب أمام عينيك قبل ذهابك .
ـــ بلقيس : انس ماحدث ياسليمان ... (صفحة ١٦٧) .
ـــ سليمان : وماصنعنا شيئا أكثر من أولئك المشعوذين[١] الذين يبهرون الأبصار بما لديهم من خدع وخيالات (صفحة ١٦٨) .
ـــ سليمان : ومانفع هذه السماء ... (صفحة ١٦٨) .

وقد علق على هذه المسرحية ، الأستاذ أحمد محمد عبد الله فى مجلة المجتمع الكويتية بقوله :

اتخذ الكاتب توفيق الحكيم من نبى الله مادة للكتابة ، لا لبيان الوجه النافع للدعوة الحقة وإنما قلب الأمور إلى سواد كامل ، وعبارات نازفة لكوامن الشك فى نفسه وبهذا وقع فى منطقة الاعتداء على حرمات أنبياء الله ... فنراه يلج فى السفاهة وهو يستعرض حياة النبى ويأتى بالكلمات الدنيئة وعلى لسان النبى يُجرى مايطيب له من ألفاظ تنزفها نفسه القلقة المريضةالتى يتصاعد منها بخار الشك وبذلك تضع كل مافى الصورة من جمال [٢] .

فالمسرحية ، كما بين الكاتب تعد صارخ على النبى الكريم واتهامه بأشياء باطلة .

صور توفيق الحكيم سليمان عليه السلام : فى صورة رجل جنس تحكمه شهوته فى اقتناء النساء والتحكم فيهن ، لأنه ملك ناحية القدرة ... والعجيب أن الكاتب قد استعاد نشيد الإنشاد الذى يردده اليهود ، وامتنعت عنه الكنائس فى أوربا بعد أن كان يتلى عندهم ، لما يحويه من كلمات نجسة وتعبير حسى قبيح للشهوة العارمة . إن توفيق الحكيم يستعيده ويجعله شعرا لسليمان تردده بلقيس بعد أن دسه سليمان تحت وسادتها ليعبر لها عن حبه ... وناهيك عن كلمات النشيد لما فيها من

(١) وهكذا يعتبر الكاتب أن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله لرسالته لا يختلفون عن المشعوذين ، فهل هذا الكلام يصدر عن كاتب مسلم ؟ اعتداء على الله ورسله والحرائر من النساء .
(٢) العدد ١٨١ / لسنة ١٣٩٣ هـ صـ ٣١ ومابعدها تحت عنوان توفيق الحكيم عندما خذلته باريس افترى على الأنبياء .

خسة وقبح ... وتقرأ بلقيس النشيد وتردده لأجل حبيبها الذى تركته إلى سليمان لترى ما يريد ... ويخترع الحكيم الذنوب والمظالم للنبى وكأنها أمور عادية لا طلال لها . وهناك أيضاً هذه المعجزة ... وما سخره الله لنبيه سليمان عليه السلام ... أتعرف كيف جعله الحكيم ... اتخذه وسيلة للتباهى به أمام بلقيس ليبهر عينيها وليجذب فؤادها حتى يستأثر بها حبيبة مخلصة له ...

ويختم توفيق الحكيم مسرحيته :

. إن سليمان قد هزم ... وقد رجعت بلقيس إلى ديارها كسيرة القلب ومات سليمان مهموما عليه الغم والأسى لأن امرأة غلبته ولم يستطع إخضاعها .

التصحيح

سيرة سليمان عليه السلام

من هو سليمان عليه السلام ؟ وإلى من ينتسب ؟ وأين كان ينزل ؟ ومن أين أتى ؟ ما مدى التمكين الذى تحقق له فى أرض الله ؟ وهل قامت له دولة ؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ وهل يمكن التعرف على جوانب من تاريخ تلك الدولة الفكرى والعقدى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ؟ وما هى طبيعة العلاقة التى كانت تربط مملكة سليمان عليه السلام بدولة سبأ ؟

ما هى مصادر ومراجع معلوماتنا عن هذا النبى الكريم وقومه ؟ وما هى الاستفادة التى يمكن أن تعود على الدارس لتاريخ سليمان عليه السلام وقومه ؟

تلك أسئلة كثيرة تدور فى ذهن الراغب فى التعرف على حقيقة تاريخ هذا النبى الكريم ، وتاريخ الدولة التى كان يحكمها ، وطبيعة القوم الذين بعث فيهم .

وسنحاول بإذن الله – اعتمادا على الله ثم على ما بين أيدينا من مصادر صحيحة الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الاستطاعة ، دون أن نتطرق إلى محاولة إدراج أى من الافتراضات التى لا تعتمد على وثائق صحيحة توفيرا لجهد القارىء والباحث ، حتى ينصرف بجهده إلى ما يفيده فى دنياه وأخراه .

سليمان – عليه السلام – رسول كريم بعث فى بلاد الشام والبلاد المجاورة يدعو إلى الإسلام(1) ، بعد وفاة والده داود – عليه السلام – وداود عليه السلام

(1) العجيب أن الموسوعة العربية الميسرة التى أشرف على تحريرها محمد شفيق غربال ، واشترك فى تأليفها بعض أساتذة الجامعات وهم : د. إبراهيم نصحى ود. أحمد فخرى ، ود. أحمد بدوى ، د. أنيس صايغ ، د. توفيق إسكندر ، زينب عصمت راشد ، د. عبدالرحمن زكى ، د. عبدالمنعم أبو بكر ، د. قسطنطين زريق ، د. محمد يوسف زايد ووديع ، تقول عن سليمان : « ابن داود ، نبي وملك اليهود ، وفى عهده بُنِىَ الهيكل المقدس » ص ١٠٠١ وهذا ما بينا عدم صحته فى رسالتنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام » ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

ينتهى نسبه إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام ، وكانوا جميعا ينزلون بالأرض التى بارك الله فيها للعالمين (بيت المقدس) والتى كان ينزل فيها آباؤهم وأجدادهم يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

وقد مكن الله لداود وأعطاه النبوة والملك والحكمة . كما مكن لابنه سليمان من بعده فأعطاه ملكا لم ولن ينبغى لأحد من بعده كما سنرى .

وسليمان عليه السلام قامت على عهده وعهد أبيه دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، وحدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية وفلسطين) وتشمل الجزيرة العربية كلها .

هذه الدولة كانت تعاصر ما يطلق عليه المشتغلون بالتاريخ فى عصرنا الحاضر ، اسم الدولة السبئية الأولى (٩٥٠ ــ ٦٥٠ ق . م) . والدولة التى كان يحكمها داود وسليمان كانت دولة عقدية دينها الإسلام وسنعرض لجوانب من تاريخها السياسى والاجتماعى والاقتصادى إن شاء الله .

والتعرف على تاريخ هذه الدولة يستلزم منا التعرض لتاريخ الدولة الإسلامية ، التى قامت على عهد سليمان – عليه السلام – وكانت عاصمتها بيت المقدس ، وعلاقتها بالدولة السبئية قبل إسلامها وبعد إسلامها ، ثم بعد ردتها . مع العلم بأن مصادر معلوماتنا عن هذه الفترة وتاريخها هما القران والسنة وشروح المفسرين والمحدثين ، بالإضافة إلى ما ورد فى بعض كتابات المؤرخين المسلمين كالطبرى وابن كثير .

وسنعرض أولا :

للنصوص القرآنية وتفاسيرها التى يمكن أن نستنبط منها بعض الملامح التاريخية الأساسية لهذه الفترة .

ثانيا : الدروس المستفادة :

أولا : النص القــرآنى[1] :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال : يا أَيُّها الناسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطيرِ . وأوتِينا مِنْ كُلِّ شَىء ، إنَّ هَذَا لَهُوَ الفضلُ المبينْ . وحُشِرَ لسليمانَ جُنُودُه من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذَا أتَوْا عَلَى وادِ النَّمْل قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يَحْطَمِنَّكُمْ سليمانُ وَجُنُودُه ، وهم لا يشعرون . فَتَبَسَّمَ ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى[2] أنْ أشكر نِعْمَتَك الّتِى أنْعَمْتَ علىَّ وَعَلَى وَالِدَىّ ، وَأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وأدْخِلْنِى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأُعذبنه عَذَاباً شَدِيداً أوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينْ ، فمكث غير بعيد فقال : أحطتُ بِما لَم تحط به ، وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين . إنِّى وجدتُ امْرَأةً تَمْلِكُهُمْ ، وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىءٍ ، ولَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَومَهَا يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألاّ يَسْجُدُوا لله الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ والأرض ، ويعلم مَا تُخْفُونْ وَمَا تُعْلِنُونْ . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قَالَ : سننظر أَصَدَقْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذبينْ . اذْهَبْ بكَتَابِى هَذَا فَأَلْقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يَرجِعُون . قالت : يا أَيُّها الملأ ، إنِّى أُلْقِى إلى كتابٌ كريمْ ، إنَّه مِنْ سُلَيْمَانَ ، وإنَّهُ بِسْمِ الله الرّحْمَـٰنِ الرَّحيـِم . ألاّ تعلوا على ، وأتونى مسلمين . قالت : يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمْرُ إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إنَّ الملوك إذَا دَخَلُواْ قَرْيَة أفْسَدُوهَا ، وَجعَلوا أَعزَّةَ أَهْلِهَا أذِلَّة ، وكذلك

---

(١) النمل : ١٥ - ٤٤ .

(٢) الهمنى وأرشدنى . وقد روى عن النبى ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : يابنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ - ٣٦٦) .

يفعلون . وإنِّى مُرْسلَةٌ إِلَيْهِم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان . قال : أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مِمَّا آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارْجِعْ إلَيْهِمْ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بِهَا ، ولنخرجنهم مِنْهَا أَذَلّةً وهم صاغرون . قال : يا أيها الملأ ، أيكم يأتِينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنَا آتيكَ بِهِ قبْلَ أَنْ تَقُومَ من مقامِكَ ، وإنِّى عَلِيهْ لقَوِىٌّ أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنَا آتيك به قبل أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى ، أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنَّمَا يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنِّى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

(ب) **التفسيـــــر** :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

«هذه هى إشارة البدء فى القصة . وإعلان الافتتاح . خبر تقريرى عن أبرز النعم التى أنعم الله بها على داود وسليمان – عليهما السلام – نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم فى سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء ، ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان

وأما سليمان ففى هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ، بالإضافة إلى ما ذكر فى سورة أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة ، ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد لله الذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له إياه . وهو بعض مِنّته وعطاياه .

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه ، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله ...

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددها بالتحطيم والدمار والفناء[1] ؟

---

(١) قال البروفيسور (م . ى . أولى فنيت) الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية . بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

﴿ وورث سليمان داود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ ..

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان ، إنما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !

﴿ وورث سليمان داود ﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس : ﴿ قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ﴾ ... فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شيء إنما جاء من حيث جاءه ذلك التعليم .

﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ ... يذيعها سليمان – عليه السلام – فى الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليه ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار . وستليها قنابل قوتها مليون ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط . وأن ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » .

وقد صحت نبوءته وأنتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس إليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يتراوح بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومائتى ألف . وذلك غير المشوهين والمعوقين الذين ماتوا بعد ذلك . وهم يعدون بعشرات الألوف !!

إلا الله . وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء - بهذا التعميم إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم - هي لغاتها ومنطقها - فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان - عليه السلام - فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم ..

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان - عليه السلام - فى هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريق المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل .. وأنه لا يسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء ، والطائفة التى سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها فى أمة الطير .

يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز .

حقيقة أن سنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ، وأن خلقه الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام . وأنها خاضعة — كحلقة مفردة — للناموس العام ، الذى يقتضى وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة أن الهدهد الذى يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وأن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقى إلى نوع آخر ، ... وأن هذا — كما يبدو — طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذى لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله فى الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ ..

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور ، يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون . أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن) وإنهم قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية — ولا ندرى كيف — وأن منهم طائفة آمنت برسول الله — ﷺ — ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخبارا : ﴿ قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ،

ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ .. ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان – إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات – فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ .. وقال فى سورة « الناس » : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ . وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان . وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة فى موكبة ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولابد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذى ظهر من الهدهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره « فهم يوزعون » حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ..

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نملة . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى – ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا من اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال –قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل . ادخلوا مساكنكم – كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولةَ عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا « فتبسم ضاحكا من قوله » .. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ، واتجه إلى ربه فى إنابة يتوسل إليه :

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ ..

بهذا النداء القريب المباشر المتصل .. « أوزعنى » اجمعنى كلى . اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى وتوجهاتى . اجمعنى كلى . اجمع طاقاتى كلها . أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لكلمة أوزعنى) لتكون كلها فى شكر نعمتك على وعلى والدى ...

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان - عليه السلام - فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياح وابتهال .

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى .. وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ .. والعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين به كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ..

أدخلنى برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول فى عبادة الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله - حتى بعد أن اصطفاه ، خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به سمره .. وليتك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك منها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان. وسليمان إنسان ونبى، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية فى مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف . وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحالة »(١) .

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ :

« والآن نأتى إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد يحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ، وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهدة والفجوات تنسيقا بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوى دورا لكل من الجن والإنس والطير . فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة .. وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة . شخصية سليمان ، وشخصية الملكة (ملكة سبأ) وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها .

---

(١) مأخوذ عن سيد قطب فى ظلال القرآن للأسباب التى بينا فى ص ٥٤ الهامش .

يبدأ المشهد الأول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ ..

فها هو ذا الملك النبى . سليمان . فى موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض . وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم ، فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشد الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفعة مرنة جامعة : ﴿مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ ﴾ .

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! .. وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كى لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندى الغائب المخالف : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ﴾ .. ولكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الأرض ، إنما هو نبى ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى أن يقضى فى شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره .. ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : ﴿ أوليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة (أو لعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد . ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجأة ضخمة لسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

﴿ فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ..

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ .. فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ – ومملكة سبأ تقع فى جنوب الجزيرة باليمن – فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، ﴿ أوتيت من كل شىء ﴾ وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والمتاع . ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ . أى سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة . وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿ يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض . والخبء : المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السموات والأرض . وهى كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب فى الكون العريض ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وهى مقابلة للخبء فى السموات والأرض بالخبء فى أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذى لم يقض الملك فى أمره بعد ، فهو يلمح فى ختام النبأ الذى يقصه ، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس إليه عروش البشر . ذلك كى يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية :

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ..

فيلمس قلب سليمان – فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها – بهذه الإشارة الخفية ! .

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب .. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه ، ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به . إنما يأخذ فى تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبى العادل والملك الحازم :

﴿ قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾.

ولا يعلن فى هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك وتعرض المفاجأة الغنية فى موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

﴿ قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ ..

فهى تخبرهم أنه ألقى إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذى جاء به كما تقول التفاسير – لأعلنت هذه العجيبة التى لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف أُلْقِىَ إليها ولا من ألقاه .

وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التى أعلنت عنها للملأ : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .. وهى كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا فى هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التى يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحى إليها بهذا الوصف الذى أعلنته .

وفحوى الكتاب فى غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد :

ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع فى الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

﴿ قالت : يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ ..

وفى هذا تبدو سمة الملكة أريبة ، فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أُخِذَتْ بهذا الكتاب الذى ألقى إليها من حيث لا تعلم ، والذى يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأى بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأى :

﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾ .

وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التى تكره

الحروب والتدمير ، والتى تنضى سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

فهى تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد . وأباحوا دمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ، وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذى يفعلونه .

والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح فى دفع القتال . وهى تجربة فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدى . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذى لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن فى قوة وإصرارا تهديده ووعيده الأخير .

﴿ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ..

وفى الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ ؟ أتقدمون لى هذا العرض التافه الرخيص ؟ ﴿ فما آتانى الله خير مما آتاكم ﴾ لقد آتانى من المال خيرا مما لديكم ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق ، العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير ، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحنى ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التى تعنى أهل الأرض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه ! .

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : ﴿ ارجع إليهم ﴾ بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ جنود لم تسخر للبشر فى أى مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم فى نضال : ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضى الأمر ، وانتهى الكلام فى هذا الشأن .

ثم إذا سليمان – عليه السلام – يدرك أن هذا الرد سينهى الأمر مع ملكة لا تريد العداء – كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية بهدية ! ويرجح أنها ستجيب دعوته ، أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت بعد . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة . وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده فى استحضار عرشها ، الذى خلفته فى بلادها محروسا مصونا :

﴿ قال : يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ..

ترى ما الذى قصد إليه سليمان – عليه السلام – من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه .. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها – فيما يبدو – فإذا الذى عنده علم من الكتاب « يعرض أن يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال به ﷺ ، موهوب سرا

من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلين . ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر فى حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿ عنده علم من الكتاب ﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم فى هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التى تتم بها تلك الخارقة التى تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه – عليه السلام – ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ، ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان – عليه السلام – وراعه أن يحقق الله له مطلبه على هذا النحو المعجز واستشعر أن النعمة – على هذا النحو – ابتلاء ضخم مخيف ، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف

الله منه هذا الشعور فيتولاه ، والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان – عليه السلام – فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

﴿ قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدى إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

﴿ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ﴾ ..

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها .. أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جيء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفى أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات وقد انتهت إلى جواب ذكى أريب : « قالت : كأنه هو » لا تنفى ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة فى السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ ..

ثم يتدخل السياق القرآنى لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله

وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ، فقد نشأت فى قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهى الشمس كما جاء فى أول القصة :

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين ﴾ ..

وكان سليمان – عليه السلام – قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، ثم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها – وهذه طريقة أخرى فى الأداء القرآنى فى القصة غير الطريقة الأولى :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ..

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها . ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض فى تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : ﴿ قال : إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ !

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها ومع سليمان لا لسليمان .. ولكن لله رب العالمين .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبى الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة .. ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وسجل السياق القرآنى هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التى يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين فى الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما

أخوان فى الله .. رب العالمين .. على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول - ﷺ - وإياهم إلى الإسلام ، وفى نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد بن عبدالله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هى ذى امرأة فى التاريخ تعلمهم أن الإسلام لله يسوى بين الداعى والمدعوين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين ! » [1] .

ثانيا : الدروس المستفادة :

● التمكين فى الأرض لمن يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، سنة من سنن الله الثابتة فى حياة الأمم يقول الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ [2] .

فشرط الله لإمضاء وعده بالتمكين للأمم ، هو : أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا . ووفاء بالوعد فقد مكن الله لداود ، العبد ، الأواب ، المجاهد ، الذى كان على رأس الفئة القليلة المجاهدة التى صمدت فى وجه الفتن داخل الصف المسلم ، وصمدت فى وجه الهجمة الطاغوتية :

﴿ قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

كانت النتيجة : ﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ﴾ ، والتمكين لداود : ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ [3] .

واستمر التمكين للمؤمنين الموحدين على عهد سليمان عليه السلام ؛ وقامت

---

(١) عن سيد قطب . فى ظلال القرآن .

(٢) النور : ٥٥ .

(٣) البقرة : ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، امتدت لتشمل بلاد الشام والجزيرة العربية كلها .

● إنَّ العلم مَنحة من الله عز وجل : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ .

والعلم السليم هو الذى يصل الإنْسَان بربه ، ويكون وسيلة لتحقيق العبودية الكاملة لواهب ذلك العلم .

وشُكْرُ المُنْعِمِ بهَذَا العِلْمِ على هذه النعمة له أساليب عديدة ؛ منها بذل ذلك العلم ابتغاء مرضات الله ، وتسخيره فى خدمة دين الله ، والدعوة إلى الله ، وابتغاء ثواب الآخرة ، وعدم استعماله فى طلب الدنيا لذاتها ، ولذلك فإن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة ، رجال منهم « رجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأُتِىَ به فَعَرَّفَهُ الله سبحانه نِعَمَهُ ، فَعَرفَهَا ؛ قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمتُ العلَم وَعلَّمْتَهْ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْأَنَ ؛ قال : كذبتَ ، ولكنَّك تعلمت ليقال : عالم وقرأت القرآن ليقال ، قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار »(١) .

فذاك رجل وهبه الله علما ، ولكنه جعله مطية للدنيا ، فكان وبالا عليه بدلا من أن يكون خيرا له .

ولفضل العلم الذى يصل الإنْسَانَ بربه ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى طلبه مما يسهل الله به الطريق إلى الجَّنة : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »(٢) .

ولذلك فإن العلم الصحيح يثمر ثمرة طيِّبَةً فى القلب ، تجعلُ الإنسانَ خَاشعاً ذَليلاً متبتلا بين يدى الله عز وجل : ﴿ إنَّما يخشى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ ﴾(٣) .

---

(١) فقرة من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، رواه مسلم (انظر : مختصر صحيح مسلم ص ٢٨٩ ، حديث ١٠٨٩) ، رياض الصالحين ، ص ٥٧٦ ، حديث رقم : ١٦٢٣ .

(٢) رواه مسلم (رياض الصالحين ، ص ٤٨٦) .

(٣) فاطر : ٢٨ .

وداود وسليمان – عليهما السلام – وهبهما الله علما ، فوظَّفَاهُ فى طاعة الله عز وجل ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون فى كل زمان ومكان .

إنَّ العلمَ إذَا وَظَّفَهُ الإنْسانُ فى معصية الله عز وجل ، فهو علم فاسد ، وصاحبه مأزور . والعلم الذى لا يثمر عملا فهو حجة على صاحبه وليس حجة له ، والدليل : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ فالحمار لو حمَّلْنَاه مليون كتاب فى الهندسة لظل حمارا ولو حمَّلْنَاه مليون كتاب فى الطب لظل حمارا .

ولذلك فقد قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل : (اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن تؤجروا بعلمكم حتى تعملوا) .

كما أن رسول الله ﷺ قال : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة[(١)] ، يعنى ريحها » .

وخرج الترمذى من حديث كعب بن مالك عن النبى ﷺ : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » .

ومن هنا نرى إدراك نبى الله سليمان لهذا الفضل العظيم ، فيعلن على الملأ : أن الفضل لله ، وأن ما يشاهدونه من النعم هى هبة من رب العالمين : ﴿ الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾[(١)] . إنه لم يتطاول بعلمه ، لم يستعل ، لم يتكبر ، لأن هذا العلم الصحيح قد زاده حسنا ، قد زاده تواضعا لله عز وجل ، وهذا هو المعيار الصحيح للعلم السليم ، وبهذا يكون العلم الشرعى هو ذلك الذى

---

(١) خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(١) ورد فى حديث رواه سعيد بن داود عن يوسف بن محمد ابن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : يابنى لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه ، (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠) وهذا يدل على أن أم سليمان كانت صالحة عابدة كما كان أبوه عليه السلام .

يصلك بالله ، ويجعلك عبدا حقيقيا لرب العالمين . ولهذا كان علم التوحيد أشرف العلوم الإسلامية على الإطلاق .

● **الله يهب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده :**

● إن التمكين الربانى لسليمان– عليه السلام– النبى المسلم، بالصورة التى كان عليها ملك سليمان ، لم ولن يتكرر على مدار الزمان ؛ من ملامح هذا التمكين تكلم لغة الطير ، فقد علم الله سبحانه وتعالى سليمان لغة الطير ، كما وهبه من كل شيء : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ ولذلك كان لابد من الشكر : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ .

ومن ملامح هذا التمكين تأييد سليمان – عليه السلام – بمقومات القوة المادية : طيرٍ يجوز أجواء الفضاء ، وشياطين يغوصون فى أعماق المحيطات ، وجن يرون الناس والناس لا يرونهم ؛ أى قوات فى البر والبحر والجو ، وهذا ما لم يتحقق ولن يتحقق لأحد من البشر إلا أن يشاء الله – أى أن التمكين للإسلام فى الأرض وتأييده بالقوة المادية سمت للدولة الإسلامية فى كل زمان ، كما كان عليه الأمر على عهد سليمان عليه السلام . فلابد للحق من قوة تحميه وتؤيده .

ومن ملامح هذا التمكين للحق فى الأرض ، إدراك لغة النمل ، فها هو جيش سليمان يتحرك فى طريقه ، ورغم الحركة العارمة ، أُسْمِعَ سليمان عليه السلام نملةٌ تطلب من مملكة النمل ، أن يدخلوا جحورهم حتى لا يسحقهم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون[1] . وهنا نقف أمام خوارق عديدة .

الأولى :

(أ) نملة تدرك أن الخطر ماثل أمامها ، وقد يتحقق هذا الإدراك لغير

---

(١) وفى هذا التصرف من قبل نملة ، قد تبدو أمام الناظر من أضعف مخلوقات الله ، يظهر حرص الراعى على الرعية ، وحرص الجندى المسلم فى موقعه أن لا يؤتى أحد من قومه من قبله ، وحرص الجندى والراعى على أن يُبعدوا الخطر عن أمتهم . فالنملة بتصرفها ، تبدو يقظة مدركة لمسئولياتها ، وواجباتها ، فقد أدركت أن هنالك خطر على بنى جنسها فانطلقت تنبه وتحذر « ادخلوا مساكنكم » . فهل يتفكر ويتدبر بنو الإنسان الذين ضيعوا رعيتهم وتركوا ثغرات بلادهم أمام الأعداء مفتوحة .

النمل من المخلوقات على اعتبار أن الله قد أودع فى المخلوقات ما تتمكن به من إدراك الخطر الذى يمكن أن تتعرض له ، فتجتنبه ، ولكن كون أن النملة تدرك أن الخطر يمكن أن يحدث من سليمان وجنوده الذين يجوزون بالقرب منهم ، فهذا هو مكمن الإعجاز ، كون أن نملة تدرك أن الذى يمر هو سليمان وجنوده ، فهذه خارقة .

(ب) من الذى أعلم النملة أن المارين هم سليمان وجنوده ، إنه الله رب العالمين ، ولا عجب فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾(١) .

وفى الحديث قال ﷺ : « إن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفِى أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمة من النَمْل تسبح، وفى رواية : أحرقت أمة من الأمم تسبح الله » .

أى أنها كانت أمة مسلمة طائعة منقادة لله رب العالمين .

الثانية :

سماع سليمان – عليه السلام – لحديث يدور بين نملة وأخرى ، وفهمه لهذا الحديث ؛ فلو افترضنا إن إنساناً قد استطاع أن يسجل الأصوات أو الإشارات المتبادلة بين كائن وآخر ، فهل بإمكانه أن يدرك ماذا يريد أن يقول الكائن للكائن ؟ مستحيل ؛ هذا المستحيل هو الذى تحقق لسليمان – عليه السلام – لأن الله الذى مكن له : ﴿ إنما أمره إذَا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . هذا الذى تحقق لسليمان لم يَتحقق ولن يَتَحَقّق للبشرية بعد سليمان عليه السلام إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى . فأجهزة التَصَنُّتِ لا تستطيع أن تسجل حركة النمل أو

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) رواه مسلم والبخارى وأبو داود وابن ماجه وأحمد (المعجم ، جـ ٢ ، ص ٣٩١) ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٩ .

أصوات النمل أو إشارات النمل ، ولو فرض ونجحت ، فلن تستطيع أن تقول لنا ، ماذا تريد نَمْلَةٌ أن تقول للأخرى .

ماذا فعل سليمان حينما أدرك فضل الله عليه ، بتعليمه لغة النمل : كان كدأبه دائما ، متواضعا لرب العالمين ، لم يتعال ، لم يدع الناس ويقول لهم : انظروا من مثلى فى العالمين ؟؟؟.. العكس هو الصحيح ، التوجه إلى الله : ﴿ رب أوزعنى ﴾ أى وفقنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ (١) . وشكر النعمة يستلزم أن يقوم المنعم عليه بالعمل الصالح ، وهو يطلب فى ذلك الإعانة من الله عز وجل : يارب وفقنى لشكر نعمتك ، وأن أعمل صالحا ،ـــ فالتوفيق من الله عز وجل . ولذلك كان محمد ﷺ يقول : « اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وأن يدخله الله فى عباده الصالحين ، لم يقل فى الأغنياء ، لم يقل فى أصحاب الجاه والسلطان ولكن فى العباد الصالحين .

وهكذا يجب أن يكون المسلم شاكرا لله سبحانه وتعالى فى كل أحواله ، يطلب النصر والمعونة والتوفيق حتى يتمكن من شكر نعمته ، وأن يحرص دائما على أن يكون بين العباد الصالحين فى الدنيا ، ويطلب من الله أن يحشره معهم فى الآخرة .

---

(١) قال عبدالرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى : أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر ؟ وقد روى مرفوعا ، ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه عن طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شباب حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : خرج نبى من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبى : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة . قال السرى : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجلها باسطة يديها وهى تقول : (اللهُم إنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ ولا غِنَاءَ بنا عن فضلك) . قال ، فصب الله عليهم المطر . (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠ .

● واجبات الراعى حيال الرعية والصفات التى يجب أن يتصف بها القائد : الحكمة ، العدل ، عدم الاندفاع

يقول محمد ﷺ : « كلكم[1] راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

وهكذا كان سليمان ، كان راعيا لأمته ، من الإنس والجن والطير ، وغيرها من مخلوقات الله عز وجل ، فهل ضيعها ؟ على العكس ، لقد كان حريصا على تفقد رعيته ، لأنه يعلم أنه سيسأل يوم القيامة عنها : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غَاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »[2] . وفى رواية : « فلم يُحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة » . وفى رواية لمسلم : « ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة » .

وتفقد الطير ، فقال : ﴿ ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ . وهذا دليل على يقظة الراعى والقائد ، ومن هو ؟ إنَّه الملك ؟؟.. فرغم المشاغل العديدة ، ورغم المسئوليات الكبيرة فقد فطن سليمان عليه السلام إلى غياب أحد جنوده عن موقعه .

وغياب جندى من جنود سليمان عن موقعه ، قد يكون فى وقت حرب مع الغير ، أمر خطير ، وتركه دون تنبيه أو محاكمة أو عقاب يمكن أن يؤدى إلى حالة من التسيب داخل الجيش ؛ فلابد من الضبط والربط ؛ وعلى الجانب الآخر لا نرى اندفاعا ، لا نرى عجلة من القائد فى إصدار الحكم ؛ لم يقل دم الهدهد هدر ، وحجته أنه فى الميدان ، وترك الثغرة يعتبر خيانة عظمى ، ولكن نرى الحكمة ، نرى التريث ، نرى العدل فى تصرف سليمان عليه السلام حيال هذا الأمر : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

يقدم لى عذرا مقبولا يبين فيه سبب غيابه عن موقعه فى الجيش ، وإلا تعرض للعقاب .

العبودية الحقيقية لله عز وجل :

وطار الخبر ، وتهامس الجنود ، ولابد أن الخبر قد وصل إلى آذان الهدهد الذى كان غائبا ، لأننا نرى أنفسنا أمام الهدهد يقول لسليمان عليه السلام : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ . من الذى يتكلم ؟؟.. إنه جندى من جنود سليمان ، يقول لسليمان عليه السلام الملك النبى الرسول الذى أيده الله وآتاه من كل شىء ؛ عندى معلومة ليست عندك .. لم يَخَفْ ، لم يرْتَعِشْ ، لم يقلها من بعيد ولكن من قريب ، ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ يعنى : غير خائف ، وممن يخاف ؟ وهو يعلم أن الأجل بيد الله ، والرزق بيد الله ، فَلِمَ يخاف ؟ ومِمَّنْ يخاف ؟؟.. وهو يعلم أن الجميع فى قبضة الله عز وجل المحيط بهم ؛ إنه الإسلام الذى تربى عليه هذا الجندى ، فأدرك أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، وأن العبد لا يملك للعبد نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ، حتى لو كان الملك سليمان نفسه (عليه السلام) .

وهذا درس لبنى الإسلام ولبنى البشر فى معنى الاستسلام الكامل لله ، واليقين أن الحياة والموت بيده وحده ، وأن الرزق بيده ، فلم يخنعون ؟ ولم يُسْتَذَلُّونْ ؟؟.. موقف شجاع من الهدهد ، ولكن موقف سليمان عليه السلام كان أشجع ، وأقوى ، وأعظم ، وأنبل لم يقل سليمان عليه السلام له : كيف تجرؤ على مخاطبة مَلِيكِكَ بهذه الصورة ، ولم تقلها الحاشية وكان يمكن أن تقلها ، لم يقل سليمان : اقبضوا عليه لأنه لم يركع ولم يسجد فى حضرة مليكه ، إن الهدهد ، وهو خلق من خلق الله كان يحدثه حديث الند للند ، حديثا يتجلى فيه قوة المسلم ، واستعلاء المسلم ، وأدب المسلم . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين . إنّى وجدت امرأة[1] تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها

---

(١) وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ لمّا بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . رواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٢) .

عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألَّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

ما هى المعلومات التى وضَعَها الجندُّى بين يدى قائده ؟؟..

هناك مملكة معاصرة لدولة سليمان هى مملكة سبأ (جنوب الجزيرة العربية) ، تحكمها ملكة آتاها الله من كل شىء ، بما فى ذلك العرش العظيم ؛ ولكن مع ذلك التمكين الربانى ، والتقدم فى الجانب المادى ، كان هنالك ارتكاسة فى الجانب الروحى العقدى ، كان هنالك شرك بالله عز وجل ، إنَّهم يتعبدون للشمس من دون الله ، لقد نسوا المنعم ، وما كان يجب عليهم من شكر المنعم عز وجل على نعمته ..

شتان بين نبى أوتى كل شىء فيقول : ﴿ إنَّ هذا لهو الفضل المبين ﴾ ، فيعرف الفضل لصاحبه ، وشتان بين من أوتيت كل شىء ، وتكفر بالمنعم والنعمة ..

● واجب الإمَام المسلم أن يربى رعيته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إن موقف أحد جنود سليمان عليه السلام وهو الهدهد ، من إنكار هذا المنكر الأكبر الذى يباشره أهل سبأ وهو الشرك بالله ، يعطينا السمت الذى يجب أن يتصف به كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ، وهو إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ...

ولا شك فى أن تصرف الهدهد حيال هذا الأمر ، يعنى أنه قد تربى على ذلك ، بحيث أنَّه كان يدرك جيدا أن الأمة المسلمة ما استحقت الخيرية إلا بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . ولهذا كان هو صورة لما يؤمن به ... لقد نقل إلى قائده ومليكه استنكاره لما يفعله أهل سبأ : ﴿ وجدتُّهَا وَقَوْمَهَا يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن

السبيل فهم لا يهتدون . ألّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ .

والهدهد وهو ينقل الخبر كان أمينا ، لم يكن متحاملا على دولة سبأ ، لقد بين أن سبب الشرك الذى وقعت فيه ملكة سبأ وقومها هو الشيطان الذى زين لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . وذلك يعنى أنهم محتاجون لمن يبين لهم السبيل الصحيح ، يعرض لهم الحق ويحاول أن يستنقذهم من الشيطان ، لأنه إذا خلت الساحة من جند الحق ، أصحاب الدعوات ، أو أنَّهم كانوا مكتوفى الأيدى حيال الباطل فذلك تقصير شديد ، يعطى الفرصة لحزب الشيطان لاجتيال الناس عن دين الله عز وجل .

ولعل فى هذا إشارة من طرف خفى : (أن هنالك واجب ينتظرك يا سليمان ؛ فلا يعقل ، أن تكون هنالك أمة مشركة ، فى عهد سليمان الذى طُويَتْ له الأرض ، ومُكِّنَ له فيها ، وأوتى من كَل شيء .

وهنا نلمح قمَّة التوحيد لله رب العالمين ، وقمة التعنيف للعقول الآدمية التى ارتكست ولم تستطع أن ترق إلى ما رقى إليه جندى من جنود الرحمن ، جندى صغير يمكن أن يكون فى قبضة أصحاب الأجسام الضخمة ، والعقول المرتكسة التى لم تعد تعرف أن لهذا الكون إلها خالقاً ، متصفاً بكل صفات الجلال ، يستحق العبادة وحده .

وهكذا فإن الإنسان المشرك بالله ، الذى لا يعرف ربه ، ولا يعبده حق العبادة يمكن أن يكون فى مرتبة أقل من هؤلاء الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه طائر ضعيف من خلق الله عز وجل ، منّ الله عليه بنعمة الإيمان .

قمة التوحيد فى إدراك الهدهد أن لهذا الكون إلها خالقا ، على كل شيء قدير : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ [1] ؛ ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلّا فى كتاب مبين ﴾ [2] .

---

(١) سورة طه : ٧ .

(٢) الأنعام : ٥٩ .

وبالإضافة إلى ما سبق ، لقد كان موقف سليمان جيدا ، لقد كان يعى قول الله سبحانه وتعالى لأبيه داود : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . قال سليمان : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

اهتمامات القلب المسلم : أن يعبد الله وحده دون شريك .

ما هى اهتمامات القلب المسلم ؟ سواء كان قلب طير ، أو قلب إنْسان ، إنَّها قضية العبادة بمفهومها الشامل ، أن يكون الكون بما فيه طائعا مستسلما لله عز وجل ؛ وهذا هو واجب الإنسان المسلم بالدرجة الأولى ومن أجله يعمل ، ومن أجله يقف حياته كلها . فالهدهد له جناحان يستطيع أن يحلق بهما فى أجواء الفضاء ، يطوف الدنيا كلها ، متفكرا فى خلق الله ؛ وما أجمل الكون ، وما أجمل الخلق ، وفى كلِ هذا جميل صنع الله عز وجل ، وفى ذلك نوع من العبادة ، ولكنها لا تكفى ، إذ إن الإيمان قول وعمل ، والعبادة لابد وأن تقترن بالإيجابية : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ . لابد من العبادة التى تنشىء الإيجابية فى نفس المسلم . ولهذا فإن الهدهد لم يشغله الكون بما فيه عن الهدف الأصلى ، أن تكون العبادة فى الأرض كلها لله ، لا يجوز أن يكون هنالك شرك بالله يتمثل فى واقع حى ، فى أمة ؛ فى وجود للحق ، وجند للحق لا يبدون حراكا .

إيجابية القائد المسلم غير المتأنِّية فى مواجهة الشرك وأهله :

وانتدبَ سليمانُ عليه السلام الهدهدَ نَفْسَهُ ليحمل رسالَتَهُ إلى ملكة سبأ وقومها يدعوها ويدعوهم إلى الإسلام : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ﴾ ..

الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة :

﴿ إنَّه من سليمان ﴾ ، سليمان مجرد من كل لقب .

قمة الأدب ، والتواضع لله عز وجل ، لم يقل من الملك سليمان ، الممكن له فى البر والبحر والجو ، الذى آتاه ملكا لم ينبغ لأحد من بعده ، ولو قالها لصدق .... لم يقل من صاحب الجلالة سليمان ، ولكن من سليمان ...

﴿ وإنَّه بسم الله الرَّحمن الرحيم ﴾ فأى عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر ، لم يقل باسم الله الجبار القهار المتكبر ، ولكن اختار من أسمائه ما يوحى بالمرحمة ويشعر بها .

﴿ ألا تعلوا علىّ ، وأتونى مسلمين ﴾ ... مسلمين لله ، مستسلمين له ، لم يقل : « لى » (أى لسليمان) ، فالإسلام هو لله عز وجل .

وجمعت الملكة مجلس شوراها ، وعرضت عليهم الأمر ، وقالت : ﴿ إنِّى ألقى إلَىّ كتاب كريم ﴾ لقد اسْتَشْعَرَتْ من مظهره أنَّه كتاب كريم ، ليس أى كتاب ، إنَّه موصوف بأنه كريم .. وهذا يبين للدعاة ضرورة أن تكون دعوتهم إلى الله متصفة بهذه الصفة ، إن الدعوة ليست كلمة تلقى حيثما اتفق ، ولكنه تجهيز وإعداد ، مع اختيار الأسلوب الأمثل . فالإنسان تأسره الدعوة الكريمة ، ﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ .

إذن لابد من حيلة أخرى لصرف الداعى عن دعوته .

استخدام الهدية لصرف الدعاة عن دعوتهم :

حينما يعجز حزب الشيطان عن صرف الداعى عن دعوته باليد واللسان ، وحينما يعجز الطغاة عن صرف الدعاة عن دعوتهم بالإرهاب الفكرى والمادى ، يلجأون إلى حيلة أخرى وهى التلويح بالمناصب ، التلويح بالدنيا ، الإغراء بالهدايا وهذا من باب الابتلاء الأشد قسوة ، فقد يصمد الداعى تحت سياط التعذيب والإرهاب ، ولكنه يسقط على أعتاب الدنيا ، ومن هنا حذرنا رسول الله ﷺ : « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »(١) .

﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

ولكن أنى للقلب المسلم الصادق أن ينصرف عن دعوته ، ولو وضعت

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ، ص ٢١٣ .

الدنيا كلها تحت قدمه . فلما جاء سليمان قال : ﴿ أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ .

وحينما لم تجد الكلمة اللينة في إعادة الناس إلى ربهم ودينهم ، ويظلوا على عصيانهم وتمردهم ، هنا لابد من استعمال القوة ، لابد من الجهاد لإزالة سلطان الطاغوت حتى يختار الناس الدين الذى يريدون بمِلْءِ إرادتهم.... ﴿ ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

إنه إعلان الجهاد فى سبيل الله ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد الجيوش ، إنه إعلان النفير العام ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد هذه القوة الضاربة فى الأرض فى أعماق المحيطات وأجواز الفضاء .

إن هذه القوة لم يستخدمها سليمان عليه السلام لترويع الآمنين ، أو لتثبيت السلطان ، أو لتحقيق الزعامة ، أو استغلال خيرات الآخرين ، لأنه يعلم أن التمكين له بهذه القوة نعمة ، وشكر النعمة يستلزم تصريفها فى الوجوه التى شرعها الله عز وجل .

وهكذا نرى النبى المسلم يوظف النعمة ، نعمة القوة التى أنعم الله عليه بها فى التمكين لدين الله فى الأرض ، ولم يستخدمها للاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، أو فى البطش بالآخرين .

- **سليمان عليه السلام يوظف العلم فى خدمة دين الله عز وجل .**

وأسلوب الداعى إلى الله لابد وأن يتواءم مع شخصية المدعو .

ملكة سبأ ملكة كانت ممكنة فى الأرض ، أوتيت من كل شىء ، لديها تمكين سياسى ، وتمكين مادى اقتصادى ، كلمتها مسموعة ، جيش عظيم ، ﴿ نحن أولو قوة . وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين ؟؟ ﴾ .

فكان لابد لسليمان أن يعرف الطريق إلى قلبها ، إلى فطرتها ، وفتح الله على سليمان ، لقد طلب من جنده إحضار عرشها قبل مجيئها وقومها إلى سليمان عليه السلام

مسلمين : ﴿ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ . وهنا أمر يحتاج إلى الوقوف والتفكر ، سليمان فى بيت المقدس ، وملكة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية ، فكون سليمان يلاحظ ما يجرى هناك ويعلم – وهذا من عند الله – بأن ملكة سبأ قد قررت الدخول فى الإسلام فهذا فى حد ذاته إعجاز ما بعده إعجاز ، قد نقول : إنه يمكن لرسول أن يحمل الخبر بسرعة ، ويأتى به إلى سليمان ، ولكن كون أنه يطلع على ما دار بين الملكة فى مجلسها الخاص وبين مستشاريها فهذا إعجاز آخر الفضل فيه لله عز وجل الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

﴿ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنِّى عليه لقوى أمين ﴾ .

شىء يؤكد أن الله سبحانه على كل شىء قدير . عرش ملكة سبأ فى غرفة عليها حراسة ، والقصر عليه حراسة ، وحمله من جنوب الجزيرة العربية إلى بيت المقدس – آماد وأبعاد – قبل أن ينفض مجلس سليمان شىء ، التفكير فيه ، يدير العقول ، وإنما هى قدرة الله التى لا تحدها حدود . ورغم هذا فإن سليمان عليه السلام – اعتبر مجىء العرش قبل انفضاض المجلس ، وقت طويل ، ولذلك كان لابد من البحث عن وسيلة أخرى لإحضار العرش فى وقت أقل ، وأحضر العرش فى وقت أقل : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده ، قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولهذا النص موحيات :

(أ) أن سليمان أقر الوسيلة العلمية فى إحضار العرش .

(ب) أن التمكين على هذه الصورة لم يتكرر فى حياة البشرية حتى الآن .

(ج) أن التمكين فى الأرض ابتلاء من الله عز وجل .

(د) أن الإنسان الذى يشكر الله عز وجل ، على نعمه فإنما هو يعمل لمصلحتِه ، والذى يكفر بنعمة الله إنَّما يعود ذلك عليه : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى

ملكى شيئا ؛ يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ...، يا عبادى إنَّما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

(هـ) تواضع سليمان عليه السلام لله عز وجل ، فهذا الإعجاز الذى وقع لم ينسبه إلى نفسه ، إنَّما هو من الله : ﴿ هذا من فضل ربى ﴾ ، ثم أردف ذلك بقوله : ﴿ إنَّ ربى غنى كريم ﴾ .

(و) إن الله قد يمكن للكفر وأهله فى الأرض ، ولكن تمكين الله للإسلام والمسلمين فى الأرض أكبر وأعظم .

إن الله سبحانه وتعالى قد مكن لسليمان عليه السلام إمضاء لوعد الله فى التمكين للمؤمنين الموحدين ، بصورة لم تتكرر لأحدٍ من بعده أبدا ، وآتاه من كل شىء .

كما أنه مكن لملكة سبأ ، ﴿ وأوتيت من كل شىء ﴾ ، ولكن ليس كما كان الأمر لسليمان عليه السلام ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التمكين الذى تحقق لملكة سبأ كان من باب الاستدراج ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ، ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ .

وملكة سبأ قد أعدت نفسها للذهاب إلى بيت المقدس لإعلان إسلامها بين يدى سليمان لله رب العالمين ، ولا شك أنها ستسلك فى ذلك أقصر طريق بأسرع وسيلة ، فكون أنها تصل وتجد عرشها قد سبقها إلى هناك إلى بيت المقدس ، فذلك يعنى أن لسليمان إمكانيات ومؤيدات ربانية ليست لملكة سبأ وهذا فى حد ذاته إعجاز ودليل على صدق سليمان .

﴿ قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ،

---

(١) جزء من حديث قدسى ، رواه مسلم والإمام أحمد ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٦٤

وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ .

وهذا الفضل من الله ، فالمسلم بفضل الله أعلم ، وبفضل الله أقدر .

وكان سليمان قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكن لها به عهد من قبل :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها . قال : إنَّه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

لقد أدركت الملكة أنها أمام عجائب تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنة إسلامها مع سليمان ، لا لسليمان ،.. ولكن لله رب العالمين .

وهكذا تبين لنا أن سليمان عليه السلام نبى مسلم ، وابن نبىّ مسلم هو داود عليه السلام ؛ وإلى الإسلام كان يدعو ، وإلى الإسلام دعا ملكة سبأ التى أسلمت بين يدى سليمان لله رب العالمين[١] .

---

(١) وفى هذا رد أيضا على هؤلاء الذين زعموا فى كتاباتهم أن سليمان عليه السلام كان يهوديا ، وأنه كان يدعوا إلى اليهودية ، وأنه هو ملك اليهود الذى بنى هيكلا ليتعبد اليهود فيه إلى يهوه : وأن مكان هذا الهيكل أسفل المسجد الأقصى . وهكذا نرى كيف شوه وزيف تاريخ الأمة المسلمة منذ سنوات طويلة ليخدم مخطط اليهود والذى ينفذ بقيته الآن .

وللأسف فإن هذا التاريخ المزيف المشوه لازال يدرس فى دور العلم فى بلاد المسلمين اعتماداً على مراجع ومصادر ثبت عدم صحتها .

دولـة سبـأ الإسلاميـة

لله سبحانه وتعالى سنن كونية فى حياة الأمم والشعوب من هذه السنن :

(أولا) : أن الشرك بالله – عز وجل – وعدم إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، يستوجب غضب الله – عز وجل –، ويحرم الأمم من الرزق والبركة .

﴿ وكأين من قريةٍ عتت عن أمر ربِّها ورُسِلِه فحاسبناها حسابا شديدا وعذَّبْنَاهَا عذاباً نُكْراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمْرِهَا خُسْراً ﴾(١) .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾(٢) .

وفى حديث عن رسول الله ﷺ – ما معناه –: إن الإنسان ليحرم الرزق قد جهز له بالذنب يذنبه .

(ثانيا) : إن عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، وإخضاع الحياة لنظامه وشرعه ، والتوبة الدائمة ، والاستغفار يؤدى إلى فتح أبواب الخير والبركة .

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنَّه كان غَفَّارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جَنَّاتٍ ويجعل لكم أنهارا ﴾(٣) .

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويَزِدْكُم قُوّةً إِلَى قُوّتِكُم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾(٤) .

---

(١) الطلاق : ٨ .
(٢) طه : ١٢٤ – ١٢٦ .
(٣) نوح : ١٠ .
(٤) هود : ٥٢ .

ولما آمنت ملكة سبأ وقومها بالله – سبحانه وتعالى – ورجعوا إلى ربهم، وأعلنوا إسلامهم لله رب العالمين: ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾. فتح الله عليهم المزيد من أبواب الرزق، وارتقوا فى سلم الحضارة والمدنية حتى تحكموا فى مياه الأمطار الغزيرة التى كانت تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادى بينهما سدا به عيون تفتح وتغلق وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد. وتحكموا فيه وفق حاجتهم، فكان لهم مورد مائى عظيم، وقد عرف باسم: (سد مأرب)، وقد أثمر ذلك جنتين عن يمين وشمال، وفى هذا يقول رب العزة عز وجل: ﴿ لقد كان لسبإٍ فى مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور ﴾[1].

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب. وقد أمر أن يستمتعوا برزق الله شاكرين ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾. والنعمة تذكر بالمنعم، وذكر المنعم يستجوب عبادته وحده دون شريك، وشكر النعمة يستلزم تصريفها فى طاعة الله عز وجل، فإذا كانت النعمة مالا، لزم توجيهها لخدمة دين الله، وإعانة عباد الله: « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له »[2].

وإذا كانت النعمة جاها أو سلطانا، وظفها فى خدمة عباد الله عز وجل، وقضاء مصالحهم.

وإذا كانت النعمة قوة مادية استخدمها فى نشر دين الله عز وجل، إلى غير ذلك من وجوه البر ....

﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور ﴾.

---

(١) سبأ: ١٥.

(٢) رواه مسلم، مختصر صحيح مسلم، ص ٢٩٠، حديث ١٠٦٦.

فالله سبحانه وتعالى أمرهم بالأكل من رزقه وشكره ، فإذا أخطأوا أو أذنبوا ، فليستغفروا الله ، لأنه رب غفور . وهكذا علمهم الله عز وجل كيفية التوبة من الذنوب إذا أذنبوا .

دولة سبـــأ ترتد عن الإســـلام

فماذا كان موقف أهل سبأ من هذا الفتح الربانى ؟ لقد عاشوا فترة مسلمين ملتزمين ، بالمنهج الربانى ، إلى أن بعد عهدهم بالإسلام ، دين الله عز وجل ، فكفروا بالنعمة ، وأشركوا بالله عز وجل ، فأعرضوا - أى أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم به .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدَّلْنَاهُم بجنتيهم جنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خمطٍ وأثلٍ وشيء مِنْ سِدْرٍ قليل ﴾[1] فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذى يعيشون فيه ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشدة تدفقه ، فحطم السد ، وانسابت المياه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت الجنتان ، وتبدلت تلك الجنان الفيح ، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية .

ثم ترد حيثيات الحكم الربانى ، لماذا دَمَّر الله عليهم :

﴿ ذلك جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾[2] .

وهذه سنة من سنن الله الثابتة التى نلمح فعلها فى حياة الأمم :

﴿ إنّ الله لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3] ... ﴿ ذلك بأن

---

(١) الخمط : شجر الأراك أو كل شجر ذى شوك ، والأثل شجر يشبه الطرفاء والسدر : النبق ؛ سبأ ١٦ .

(٢) سبأ : ١٧ .

(٣) الرعد : ١١ .

الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

فأهل سبأ كانوا كفارا ، فلما أسلموا غير الله ما بهم ، وفتح عليهم أبواب الخير والبركة وحينما ارتدوا عن دينهم ، غير الله ما بهم وضيق عليهم أبواب الرزق ، ليس هذا فحسب ولكن نزل بهم ما كانوا يستحقونه كما سنرى .

لقد كانوا إلى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم ، ضيق الله عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة ، ولكن لم يُمَزِّقْهُمْ وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ . وكان العمران ما يزال متصلا بينهم وبين القرى المباركة : مكة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشام ، فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شمال بلاد سبأ ومتصلة بالقدس المباركة ، والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون ، وإن كانوا تحت سطوة غيرهم ، فقد أصبح الغير ظاهرا عليهم ...

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾[2] .

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل فى الأخرى قبل دخول الظلام ، فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين . كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق .

ونلمح هنا عقابا ربانيا ، وسنة من سنن الله تعمل فى حياة هؤلاء القوم ، فبعد أن كان هؤلاء القوم – سبأ – ممكنين فى الأرض ، وأوتوا من كل شىء ، وكانوا أولى بأس شديد ، وكانوا ظاهرين فى الأرض ، انتهى دورهم ، واستبدلهم الله بغيرهم ، وجعل قرى ظاهرة عليهم :

﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ .

ولعل هذا من باب التذكرة علهم يرجعون .

---

(١) الأنفال : ٥٣ .

(٢) سبأ : ١٨ . التفسير من ظلال القرآن .

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الأول ، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل : ﴿ فقالوا : ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا ﴾(١) ...

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى ، التى لا تقع إلّا مرَّاتٍ متباعدة على مدار العام . لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، والتى لا تُشْبِعُ لذَّةَ الرحلات ، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

﴿ وظلموا أنفسهم ﴾(٢) .....

واستجيبت دعوتهم ، ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر :

﴿ فَجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ﴾(٣) ..

شردوا ومزقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ، وعادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الألسنة والأفواه . بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة :

﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبَّارٍ شكور ﴾(٤) ...

يذكر الصبر إلى جوار الشكر ... الصبر فى البأساء .... والشكر فى النعماء . وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء .

هذا فهم فى الآية . وهناك فهم آخر : فقد يكون المقصود بقوله : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ ... أى قرى غالبة ذات سلطان . بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة . وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء . فلم يصبروا على الابتلاء . وقالوا : ﴿ ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ ... أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا ولم

---

(١) سبأ : ١٩ .
(٢) سبأ : ١٩ .
(٣) سبأ : ١٩ .
(٤) سبأ : ١٩ .

يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم . وكانوا قد بطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة ، ففعل الله بهم ما فعل ، ومزقهم كل ممزق ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى ، وقصة تحكى .. ويكون التعقيب : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات لكل صَبَّارٍ شكور ﴾ .... مناسبا لقلة شكرهم على النعمة وقلة صبرهم على المحنة ....

وفى ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود ، إلى إطار التدبير الإلهى العام ، والتقدير المحكم الشامل ، وللسنة الإلهية العامة ، ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها ، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير :

﴿ ولقد صَدَّقَ عليهم إبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهْ إلَّا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلَّا لِنَعْلَم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك . وربك على كل شىء حفيظ ﴾[1] ..

لقد سلك القوم هذا المسلك ، الذى انتهى إلى تلك النهاية ، لأن إبليس صدق عليهم ظنه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، ﴿ فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ ... كما يقع عادة فى الجماعات فلا تخلوا من قلة مؤمنة تستعصى على الغواية ، وتثبت : إن هنالك حقا ثابتا يعرفه من يطلبه ، ويمكن لكل من أراد أن يجده ويستمسك به ، حتى فى أحلك الظروف . وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رفعه . فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له ، إنَّما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه . وليظهر فى عالم الواقع ﴿ من يؤمن بالآخرة ﴾ فيعصمه إيمانه من الانحراف ﴿ ممن هو منها فى شك ﴾ .. فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية . بلا عاصم من رقابة الله ولا تطلع لليوم الآخر .

والله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس . ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلا فى دنيا الناس .

---

(١) سبأ : ٢٠ – ٢١ .

معالم ترسيها أخبار الدولة السبئية فى حياة البشرية :

- الشرك بالله يؤدى إلى تدمير الأمم ، وتضييق الأرزاق عليها :

يقول الله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكّناهُمْ فى الأرض ما لم نُمَكّنْ لكم ، وأرسلنّا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[1] .

وهذا ما تحقق لأهل سبأ ، لقد أسلموا لله عز وجل ، ففتح الله عليهم أبواب الخير والبركة ، ولكن حينما أشركوا ، وأذنبوا وبدّلوا دَمَّرَ الله عليهم .

أى أن السبب الحقيقى الذى من أجله يدمر الله الأمم ، هو الشرك بالله - سبحانه وتعالى - ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾ وقد يسأل سائل : أليست هنالك أمم ممكن لها فى الأرض رغم كفرهم وشركهم بالله - عز وجل - والإجابة بالإيجاب ، نعم هنالك أمم كافرة ممكن لها فى الأرض ، وهذا من قبيل الاستدراج ، ولا يعطل سنة ربانية تعمل فى حياة الأمم وهى :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذْ جاءهم بَأْسُنا تَضَرَّعُوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبواب كلِّ شىء حتى إذَا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾[1] .

- إن تتولوا يستبدل قوما غيركم :

وهذا ما حدث من السبئيين ، لقد كفروا ، فمزقهم الله كل ممزق ، واستبدلهم بقوم غيرهم هم الحميريون .

وهذه سنة ربانية تعمل فعلها بإذن الله فى حياة الأمم والشعوب .

---

(١) الأنعام : ٤٢ - ٤٥ .

– إنَّ الإعراضَ عن ذكر الله عز وجل هو وراء التضييق فى الأرزاق :

لكن كثيرا من الأمم المعاصرة ، قلت أرزاقها وبعد أن كانت يدها تفيض بالخيرات على غيرها ، أصبحت يَدُهَا ممدودةً إلى غيرها ، تقترضُ لتأكل ، وتقترض لتعيش ؛ وقعت تحت طائلة الدائنين اليهود والنصارى نتيجة القروض المركبة الفوائد . وبدلا من أن تعود إلى ربها وتدرك الداء وتستخدم الدواء ، تاهت فى دياجير الظلام ، لأنها أعرضت عن كتاب الله ..

شكلت لجانا تبحث عن السبب ، سبب الفقر سبب الضيق فى الأرزاق ، فالأرض هى الأرض والسماء هى السماء ، والبحر هو البحر ، ولكن لماذا قل الخير ؟؟ لماذا حدث التقتير فى الرزق ؟؟ وجاءت النتائج المجافية للصواب إن السبب هو فشل خطط التنمية !!!.. إن السبب هو زيادة النسل ، وإذن فلابد من تحديد النسل !!

لم يحاولوا أن يقرأوا تاريخ السابقين ، وإذا قرأوا لم يعتبروا ، لم يرجعوا إلى ربهم ولم يستفتوا قرآنهم ، إنَّما استفتوا اليهود والنصارى وكانت النتيجة أن أعمى الله أبصارهم ، عن معرفة أسباب الداء ، وعن تشخيص الدواء ، لقد نسى هؤلاء أن السبب هو الكفر ، الشرك بالله عز وجل ، الإعراض عن نظام الله وشرعه ، المعاصى التى يرتكبونها ، الربا الذى يتعاملون به ، الخمر التى يسمحون ببيعها وبتحصيل الضرائب عليها ، الحدود المعطلة ، فالزانى لا يرجم ، والمخمور لا يجلد ...... بل إنهم يقفون فى وجه الدعوة إلى الإصلاح عن طريق الرجوع إلى الله عز وجل ، بل وينكلون بكل صوت يرتفع ليقول لهم : يا قوم إن سبب ما أنتم فيه من بلاء هو الكفر بالله والإعراض عن ذكر الله ..

إن استعراض تاريخ الدولة السبئية ، يؤكد لنا الآن ، أن العالم الجائع الآن تعمل فيه سنة ربانية ، وهى : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا﴾ .... ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور﴾ ..

- **الإيمان بالله هو منهج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى :**

إن الله سبحانه وتعالى قد بين للناس على لسان الرسل منهجا إصلاحيا ، هذا المنهج يقوم على ركائز :

- ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

- ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

- ﴿ ولو أنَّ أهلَ القرى آمنوا واتَّقَوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ .

ولذلك حينما استقامت أحوال أهل سبأ وأسلموا لله رب العالمين ، وأخضعوا حياتهم لنظام الله وشرعه ، فتح الله عليهم أبواب الرزق :

﴿ لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾ .

- **سيل العرم عقاب من الله - عز وجل - وهو حاضر لكل من يكفر بالله :**

إن الذى دمَّر سد مأرب وأحرق الجنتين هو سيل العرم الذى عاقب الله به أهل سبأ : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدَّلناهُم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾ .

إن العقاب الربانى لأهل سبأ نتيجة كفرهم بالله سبحانه وتعالى : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ شىء يدير الرؤوس ... بالأمس كانوا يجنون الثمار الدانيات : نخيل وأعناب ورمان ... إلى غير ذلك ، واليوم لا يجنون إلا النبق والشوك .

شىء رهيب نلمح نموذجا له الآن فى إفريقيا السوداء أو الخضراء . التى لم يكن الغيث يتوقف فيها صيفا أو شتاء ، وكانت تفيض بالخيرات والثمار ، بل إن الكثير من مصانع أوروبا كانت ولا زالت تعتمد اعتمادا كبيرا على محاصيل إفريقيا

بل إن هذا الخير الذى كانت تفيض به أفريقيا هو الذى دفع بلاد أوروبا إلى اغتصاب أفريقيا لسلب خيراتها وثرواتها ....

ولكن ماذا حدث الآن .... الغيث توقف .... خزانات المياه فى باطن الأرض نضب معينها ، أصبح الماء غَوْراً ، الرمال تزحف على أفريقيا .... تحيط بكل نبتة رطبة ... الشجرة الخضراء تخنقها ، وتُمِيتُهَا ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ .. الغابات الاستوائية تتحول إلى صحراء ، المخزن الذى كان يقتات منه الناس (أصبح كالصريم) .

إنَّ ذلك يذكرنا بقصة أصحاب الجنة الذين ﴿ أقسموا لَيَصْرِمُنَّها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ﴾[1] ....

فلتحذر البشرية التى تكفر بربها ، أو أصبحت لا تلوى على شىء ، وانطلقت تعيث فى الأرض فسادا ، وتصد عن سبيل الله ، تبغيها عوجا ، تحارب الله ورسوله أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلَّا الكفور ﴾ ... والعاقل من اتعظ بغيره ..

وهذا يدحض آراء المستشرقين اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم ، والذين ينكرون الخبر القرآنى عن سليمان عليه السلام ودولة سبأ . ويعتبرونه أسطورة وخرافة .. (تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتى ، ط ٣ ج ١ ، ص ٧٤) .

والذين يزعمون أن تهدم السد ربما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين .

والذين يزعمون أن من الأسباب التى أدت إلى تصدع السد ، ثم حدوث السيل ، إنما هو ضعف الحكومات ، ثم تحول طرق التجارة ... فألهى ذلك الحكومات عن القيام بواجباتها مما أدى إلى إهمال السد ، ومن ثم فقد تصدعت

---

(١) القلم : ١٧ - ٢٠ .

جوانبه ... (انظر : دراسات تاريخية من القرآن فى بلاد العرب ، تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٣٥١ . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ، ج ١ ، ص ٤٦١ . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، تأليف حسن إبراهيم حسن ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٧٤ م ، ص ٢٧ ، ٢٨) .

وهذا إنكار للسبب الأصلى الذى أورده الله عز وجل : وهو سيل العرم الذى أرسله الله على القوم فحطم السد ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلّا الكفور ﴾ ..

وإنكار السبب الربانى يهدف المستشرقون من ورائه إلى التشكيك فى القرآن الكريم الذى أورد الخبر الصحيح . وإذا شككوا فى القرآن فقد شككوا فى الإسلام (لا مكنهم الله من ذلك) ..

وإذا نظرنا حوالينا نجد أن كثيرا من أمم الأرض قد أنعم الله عليهم بالجنات والعيون والأموال والبنين ، وبدلا من أن يشكروا المنعم ويعرفوا حقه ، أشركوا به ، وكفروا بنعمته ، وذلك بتصريفها فى تحصيل الملذات والشهوات المحرمة ، بل إنهم وجهوها لصرف الناس عن دين الله ، وتزيين الفاحشة لهم ، هذا الكفر بنعمة الله سيؤدى حتما إلى صرفها إلى غيرهم ، مع إنزال العقاب بهم ، إمضاء لسنة الله الكونية فى حياة الأمم .

- الابتلاء الربانى وسيلة من وسائل إيقاظ الإنسان ، عله يعود إلى الله عز وجل :

وهذا ما وقع لأهل سبأ ، ولكن بدلا من أن يعودوا إلى ربهم ، ويتوبوا إليه ، ويستغفروه مما بدر منهم من ذنوب وآثام ، لَجُّوا فى طغيانهم فبطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة ، ففعل الله بهم ما فعل ، ومزقهم كل ممزق ، فأصبحوا أثرا بعد عين ، وحديثا يروى ، وقصة تحكى .

ضرورة شكر الله عز وجل فى الرخاء ، وضرورة الصبر على أمر الله فى الضيق والشدة :

﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فالمؤمن لابد وأن يشكر الله عندما يمن عليه بالنعمة ، ويصبر إذا ما تعرض لابتلاء من نوع ما .

إن الشيطان مسلط على بنى آدم ، ولكن لا سلطان له على المؤمنين الموحدين :

﴿ ولقد صدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه فاتبعوه إلّا فريقاً من المؤمنين ﴾ ..

وذلك ليثبت على الحق من يثبت ، ويزيغ منهم من لا يبتغي الحق ويتحراه : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم ﴾ .

---

(١) الأنفال : ٤٢ .

الفصـــل الرابـــع

أصحـــاب الأخـــدود

فى القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ

تمهيـــد

لقد كتب كثير عن أصحاب الأخدود ، وكل الكتابات تدور حول حقيقتهم :

من هم ؟ وإلى أى عصر ينتمون ؟ بأى دين كانوا يدينون ؟ من الذى قتلهم ؟ وما هو السبب لقتلهم حرقا بالنار ؟ وما هو حقيقة الخبر ؟

وهل كانوا بنجران فعلا ؟ أم لا ؟... وماذا طرأ على المنطقة من أحداث ؟ وهل قرية الأخدود[1] الحالية هى التى وقعت فيها حادثة حرق أصحابها ؟

وبالرغم من أن الذى كتب فى هذا الموضوع برمته جد كثير ، إلا أنه لم يحسم القضية ، ولم يصل إلى أية نتيجة مؤكدة[2] ، ولنا على ما كتب ملاحظات ، أهمها :

أولا : أن الكثيرين ممن كتبوا كانوا يهودا أو نصارى ولذلك فإن كلاًّ منهم كان حريصا على إظهار الوجه المشرق لبنى جنسه ، ولو أدى ذلك إلى طمس الحقيقة ؛ وقد حدث ذلك فعلا ، لأنها قضية إسلامية تعتمد على توحيد الله – عز

---

(١) بنجران من جنوب جزيرة العرب .

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ وما بعدها .

وجل بالدرجة الأولى . وليس من المتصور أن اليهود والنصارى الذين قال الله فيهم : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1] ، يكتبون ليخدموا قضية الإسلام . وقصة أصحاب الأخدود هى قضية الإسلام المطارد فى كل زمان ومكان .

ثانيا : إن الذين ناقشوا هذه القضية ، ناقشوها من منطلق فكرى غير سليم ، لأنهم يناقشون قضية الإسلام المضطهد من حاكم كافر يهودى (؟) واضعين فى الاعتبار أن اليهودية والنصرانية ديانتان سماويتان[2] .

ثالثا : إن الذين كتبوا فى هذا الموضوع لم يرجعوا إلى القرآن والسنة ورجعوا إلى مصادر غير موثقة ، هى المصادر اليونانية والمسيحية ، وكل منها رصدت أخبار القصة بصورة تخدم أهدافها ، ومنها الإعلاء من شأن المسيحية والمسيحيين . ولو أخضعنا المصادر اليونانية والمسيحية للجرح والتعديل ، لم تثبت صحتها[3] .

رابعا : إن الذين تناولوا الموضوع ، تناول المسائل الفرعية فيه ، وتركوا الموضوع الأصلى ، لقد انشغلوا بفرعيات يجب على المؤرخ المسلم ألا يلقى لها بالا ، لأنها لا تساهم بكثير أو قليل فى تحقيق الهدف الذى يهدف إليه .

وأصحاب الأخدود هم أمة من الناس ، أعلنوا إسلامهم لله – عز وجل –

---

(١) البقرة ٢١٧ .

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم (١) فى بلاد العرب تأليف د . محمد بيومى مهران ، ص ٣٦٥ ، ٣٧٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٧ – ٣٦٩ تزعم ما تسمى دائرة المعارف الإسلامية – أن أصحاب الأخدود كانوا نصارى ، المجلد الثالث ، ص ٤٥١ – ٤٥٣ وتزعم أيضا أن أحداثها قد وقعت عام ٥٢٣ م . انظر أيضا :

Noldeke, Geschichte der Arabek und Persen Zur Zeil der Sasanichen 1879, P. 182-187; Causin de Perseval, Essai Sur L'histoire des Arabes, Bruxelles, 7, P. 128. A. Moberg, The Book of the Himyarites, London 1924, P. 43-47, S6.

وتمسكوا به ، وليسوا مسيحيين[1] أو يهود[2] ، لأن القرآن يذكر أنهم كانوا موحدين – أى مسلمين – والمسيحية كفر ، واليهودية كفر .

وكانوا يعيشون فى قرية من قرى نجران (إن صحت الرواية التى أوردها ابن كثير)[3] وأنهم كانوا يعاصرون الدولة الحميرية الثانية (٣٠٠ – ٥٢٥ م تقريبًا) وعلى وجه التحديد على عهد مليكها العربى ذى نواس الحميرى الذى أعلنها حربا ضارية على الإسلام والمسلمين ، ومعنى ذلك أن الحادثة ، حادثة حرق المسلمين وهم أحياء وقعت أواخر حكم الدولة الحميرية الثانية ، أى حوالى ٥٢٤ م أو قبل ذلك بعام أو عامين تقريبا .

وفى هذه الفترة – فى أعقاب هذه الحادثة سلط الله على جنوب الجزيرة العربية عدوا أجنبيا ، احتل البلاد ، وملك ناصيتها ، وأذاق أصحابها أسوأ أنواع النكال ، وقتل قادتها ، وأسقط حكمهم بعد أن أزال دولتهم ، وكان ذلك جزاء وفاقا لما اقترفته أيدى حكام حمير ضد الإسلام وأهله .

فمن المؤكد أن استعمار الأحباش لجنوب الجزيرة العربيّة جرى فى هذه الفترة (٥٢٥ م) ، وهم الذين أسقطوا حكم الحميريين ، أما الأسباب التى دفعت بالأحباش إلى احتلال الجنوب العربى فليس هنالك خبر واحد مؤكد عن سبب غزو الجزيرة ، إلا ما أورده ابن هشام من أن ذلك قد حدث نتيجة استنجاد أحد الناجين من حادث الحرق فى الأخدود بالامبراطور جستنيان الذى وجه المستنجد به إلى ملك الحبشة ، الذى استجاب ، وأرسل حملة هزمت الحميريين . وأسقطت حكمهم وأزالت دولتهم ، وتذكر الرواية أن آخر حكام الحميريين هو ذو نواس الذى انتحر حينما شاهد هزيمة قواته ..

---

(١) يقول د . أحمد شلبى أن أصحاب الأخدود كانوا نصارى ، انظر موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية ج ٧ ، مكتبة النهضة – القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٠٠ .

(٢) ينكر المشتغلون بالتاريخ القصة الواردة فى القرآن الكريم من أساسها ، ويزعمون أن سبب قتل أصحاب الأخدود هو قتلهم لغلامين يهوديين ، فاتخذها ذو نواس ذريعة للقتل بنجران . انظر محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، ص ٦٩ – ٧٠ .

وعلى كل سواء أكانت قرية الأخدود بنجران هى المعنية ، أم ليست هى ، وسواء أكان الملك الذى أراد رد الناس بعد إيمانهم كفارا هو ذو نواس الحميرى أم ليس هو ، وسواء أكان يهوديا أو مسيحيا ، أو ليس كذلك ، أو سواء أكانت هذه الحادثة هى التى حركت الأحباش لاحتلال جنوب الجزيرة العربية أو ليست كذلك ، فإن الأخبار الواردة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن أصحاب الأخدود تسعى لتحقيق هدف ربانّى قد تحقق ، ولو لم يردنا خبر صحيح واحد عن المسائل السالفة الذكر .

* * *

الخبـــر الصحيـــح

أصحاب الأخـــدود مسلمـــون

فالحديث الشريف المروى عن سيد الخلق محمد ﷺ ، وهو الذى ما ينطق عن الهوى ، ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ، جاءه من علم الله المحيط ، ولأهمية هذه الواقعة التاريخية المؤكدة فى حياة البشرية عموما ، وحياة الأمة المسلمة على وجه الخصوص ، أنزل الله – سبحانه وتعالى – على سيدنا محمد ﷺ « خبر أصحاب الأخدود » (فالحادثة التاريخية لكى تؤدى دورها لابد وأن تكون صحيحة ، لا يزيد عليها شىء ، ولا ينقص من جوانبها شىء) .

فها هو رسول الله – ﷺ – يعلم أمته درسا فى التاريخ ، تاريخ السابقين : « كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت ، فابعث لى غلاما أعلمه السحر[١] ، فبعث إليه غلاما يعلمه . فكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه ، فأعجبه . فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيتَ الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيتَ أهلَكَ فقل : حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم ، الساحر أفضل أم الراهب أفضل[٢] ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان

---

(١) وهذا يعنى أن السحر كان له سوق رائجة ، وأن حكم الطغاة يعتمد على السحرة ، وهو إفساد فى الأرض : ﴿ ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ولكنه يأخذ بألباب العامة ﴿ وسحروا أعين الناس ، واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ . ولذلك فقد جعل الإسلام عقوبة الساحر ضربة بسيف ، وهذا يعنى أن حكم الطغاة لا يعتمد على الحق ، بقدر ما يعتمد على الغش والخداع .

(٢) فالشاب فى حيرة ، لأن كلام الراهب حق فأعجبه ، وكلام الساحر مزخرف أيضا ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ولذلك حينما أعجزه المنطق ، ماذا يفعل ؟؟..

أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقْتُلْ هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها[1] . ومضى الناس ، فأتى الراهِبَ فأخبرَهُ ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضلُ منى ، قد بلغ من أمرِكَ ما أرى ، وأنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على[2] ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، وأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى .. قال : أنا[3] لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله فإن آمَنْتَ بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله ، فشفاه . فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلسُ ، فقال له الملكُ : من رَدّ عليكَ بَصَرَكَ ؟ قال : ربى .

---

(١) حينما أعجزه المنطق عن التفريق بين الحق وغيره ، توجه إلى الله مباشرة بدون وساطة ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ يسأله البيان الواضح الذى لا لبس فيه ، واستجاب العزيز الرحيم للغلام بسبب إخلاصه لله ، ورغبته فى الوصول إلى الحق ، وهذا درس لبنى الإنسان ، إذا أعجز الإنسانَ شيءٌ ، مشكلةٌ ، موضوعُ ، عليه بالتوجه إلىَ الله ، فهو الملاذ وهو الحصن وهو المربى والمتعهد بالإصلاح والتربية .

(٢) وهذا يعنى أن الإسلام كان مضطهدا ، وأن الناس كانوا مستخفين بدينهم ، إنهم كانوا يخافون الفتنة ، وكانوا يقولون : ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ولكن على الجانب الآخر كان الإيمان موجوداً ، صحيح أنه لا يستطيع أن يعلن عن نفسه ولكنه موجود ، لأن الحق أصيل ، ومن سنة الله أن يكون الحقُ موجوداً « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » ، فالحق لا يستطيع أن يعلن عن نفسه ولا أن يباشر دعوة عامة ، ولكن مجال الدعوة الفردية متحقق ، ولذلك لم يتوان الراهب عن دعوة الغلام إلى الإسلام ، وعلمه كيف يتحرك لهذا الدين بصورة لا تنم عن وجود راهب يدعو إلى الله .

والشيء الآخر ، التنبيه الذى صدر من الراهب للغلام : « ستبتلى » ، لأن هذه طبيعة الطريق إلى الله ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولّما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ .

فالدعوة إلى الله تقترن بالابتلاء ، ولذلك فإن جميع الرسل والأنبياء والدعاة إلى الله تعرضوا للابتلاء ، للإيذاء باللسان واليد ، وذلك تحذير وتنبيه أيضا للذين يُنْعِمُ الله عليهم بسلوك طريق الدعوة إلى الله ، أنّكم قد تتعرضون للابتلاء منذ البداية ، دون خلط أو تلبيس : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ ..

فالراهب هنا يحذر الغلام من أن طريق الدعوة إلى الله يقترن بالابتلاء ..

(٣) الغلام يمارس الدعوة ، ويداوى ويطبب ، فعرف كيف يستخدم علمه ومهنته التى مكن الله له بها ، وهذا واجب كل إنسان علمه الله علما أو مهنة أن يجعل ذلك فى خدمة دعوته ، ودينه ، وليس فى خدمة=

قال : ولك رب غيرى[1] ؟؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنّى لا أشفى أحدا . إنّما يشفى الله – عز وجل – فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ؛ فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك . فأبى ؛ فدعا بالمنشار فوُضِعَ المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فوُضِعَ المنشارُ فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه . فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه . فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللّهُمّ اكْفِنِيهِمْ بما شئت . فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه . فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى

=الدنيا وعرضها الزائل ، لأنه كان فى إمكان الغلام أن يجمع المال وكفى ، ولكنّه لم يفعل .

فالغلام أقر بأنه لا يشفى ، وانتهز الفرصة وعرض قضية التوحيد فى وضوح : « إنّما يشفى الله » . « فإن آمنتَ دعوتُ الله فشفاك » واستجاب الوزير فآمن ، فشفاه الله » ..

(١) وهنا أسقط فى يد الطاغية ، لقد انكشفت الخدعة ، لقد تبين للوزير أن مليكه ليس بإله ، لقد آمن الوزير بالله رب العالمين ، وكفر بالطاغوت ، وهذه جريمة فى عرف الطاغوت ، لأن معنى ذلك انهيار سلطانه وربوبيته وألوهيته . فإذا أصبح الناس عبيدا لله الواحد القهار ، فلن يجد الطاغوت من يستعبده ، لن يجد من ينفذ أوامره وأنظمته التى تتعارض مع نظام الله وشرعه ، لن يجد من يركع له ، لن ينتشى بتصفيق المصفقين أو تهليل المنافقين ، لأنه لن يكون هنالك من يصفق أو يهلل وهنا نجد أن الطاغوت لا يفكر قليلا أو كثيرا فى العودة إلى الله ، إنَّه من شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون ، لا مناقشةَ ، لا حِكْمَةَ ، لا موعِظة . ولا يعرف لغةً ، سوى لغةَ البطش : « فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام » ، والنفس لها طاقة محدوَدة واحتمال محدود ، وقد تضعف ولكن ذلك لا يقلل من شأن صاحبها ، إنّه من أصحاب الدعوات . والجدير بالذكر هنا أن الوزير أو جليس الملك حينما خالط قلبه الإيمان بالله انطلق يبلغ دعوة ربه ، كان فى الإمكان أن يكتم إيمانه ، أو أن يترخص . ولكنه يعلم أن الأجل بيد الله ، ويريد أن يكون له شرف البلاغ والتضحية فى سبيل الله .

إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنَّك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضَعْ السهم فى كبد القوس ثم قُلْ : (بسم الله رب الغلام) ثم ارمنى ، فإنَّك إن فعلت ذلك قَتَلْتَنِى . فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : (بسم الله رب الغلام) ثم رماه فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنَّا برب الغلام ، آمنا بربِّ الغلام ، آمنا برب الغلام . فأتى الملك فقيل له : أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَرْ ، قال : والله قد نَزَل بِكَ حَذَرُك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأُخْدُود بأفواه السِكَكِ فَحُفِرَتْ وأُضْرِمَ النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحْمُوهُ فيها أو قيل له اِقْتَحِمْ ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه ، اصبرى فإنك على الحق .

وخَلَّدَتْ السماءُ هَذِه الصورة ، من صور الفداء والتضحية فى سبيل الله ، ونزل قرآن يتلى على مدار تاريخ البشرية يذكِّرُهَا بهذه الصفحات المشرقة فى تاريخها ، على قلب محمد ﷺ ، يقول الله عز وجل :

﴿ والسماءِ ذات البُروج ، واليومِ الموعود ، وشاهدٍ ومَشْهُودْ ، قُتِلَ أصحابُ الأُخدود ، النارِ ذاتِ الوقود ، إذْ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلّا أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾(١) .

وهذا دليل على أن هذه الفئة المؤمنة التى جادت بنفسها فى سبيل عقيدتها ودينها ، يعرف الله سبحانه وتعالى قدرها ، وإنَّه لفضل ومَّنة من الله عز وجل أن يجعل لهذه الجماعة المسلمة هذه القيمة العظيمة فيجعلها فى سجل الخالدين .

---

(١) سورة البروج ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٩٠ – ٤٩٧ ؛ انظر أيضا تفسير الطبرى ، ج ٣٠ ، القاهرة ١٣٢١ هـ ، ص ٧٢ – ٧٥ .

وهنا نتساءل لماذا تحرص كتب التاريخ على إخفاء هذه الصورة من صور الشهادة فى سبيل هذا الدين ، لماذا تحرص كتب التاريخ على تشويهها وتزييفها ؟؟ إن الإجابة ليست بعيدة ، إنه الحرص علي أن لا تجد الأمة المسلمة فى تاريخها ما تعتز به ، أو ما يعلمها كيف تموت من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا .

إن هذه الصورة المشرقة من تاريخ الجزيرة العربية ، تعكس لنا صورة من صور الهزيمة ، وصورة من صور النصر .... هزيمة الطاغوت وعجزه عن استخلاص كلمة الكفر من فم الجماهير التى أعلنت إسلامها لله رب العالمين .

وصورة للنصر تتمثل فى ثبات هذه الجماهير على الإسلام ، رغم أنها تعرضت لابتلاءات شديدة تهيض أمامها الجبال الراسيات ، وحصولها على الشهادة فى سبيل الله .

وهذا يعنى أن التمكين ليس له صورة واحدة ولكن له صور متعددة ، ومنها هذه الصورة .

معالم ترسيها أخبار أصحاب الأخدود فى حياة الأمة المسلمة :

- أن الدعوة إلى الله واجبة ، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقيض لها فى كل زمان ومكان من يرفع لواءها .

- أن الدعوة إلى الله لا تتوقف أبدا مهما كان الطغيان عارما ، ولكنها لا تأخذ شكل الدعوة العامة ، ولكن تأخذ شكل الدعوة الفردية ، فالراهب كان يمارس الدعوة الفردية ، وكذلك الغلام وكذلك جليس الملك .

- إن للدعاة نفوس بشرية ، يمكن أن تضعف تحت وطأة التعذيب ، فإذا فرض وحدث هذا فلا يجب على رفقاء الطريق أن يعتبروا لذلك سقوطا ، لا يمكن أن يعذر صاحبه ، ولكن عليهم أن يأخذوا بيد أخيهم ، ولا يعينوا الشيطان عليه ، وهذا التوجيه نستقيه من سياق الخبر الذى قاله محمد ﷺ والذى يشير إلى أن الراهب قد نبه الغلام أنه سيبتلى ، وأنه يجب أن لا يدل عليه ، ولكنه رغم هذا التنبيه ، فإن الغلام قد دل على الراهب تحت وطأة التعذيب . إنه الضعف الذى يمكن أن يصيب الإنسان تحت وطأة التعذيب

الذى تباشره الطواغيت ضد أصحاب الدعوات .

● إن الجاهلية لا تطيق أن ترى الإيمان حيا يتحرك أمامها ، لأنه يذكر الطاغوت بجرائمه وأخطرها الشرك بالله عز وجل ، كما أنه يكسب للدعوة أنصارا جددا ، ويحذر الناس من العبودية للطاغوت ، وهذا يزلزل الأرض من تحت أقدام الطاغية ، ومن هنا رأينا حرص الملك على رد الوزير والراهب والغلام عن دينهم ، نلمح هذا فى قول محمد ﷺ : « ثم جيء بجليس الملك فقيل له : **ارجع عن دينك** » ، وهى نفس الكلمة التى قيلت للراهب والغلام ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1] .

وذلك يعنى أن الطواغيت لا يَعْفُونَ عن أصحاب الدعوات إلا أن ينطقوا بكلمة الكفر ، ومن هنا تأتى أهمية الثبات على الحق ، مهما اشتد نكير الجاهلية ، ومهما بلغت قسوة التعذيب ، ففى نهاية هذا الطريق الشهادة ، وجنة عرضها السموات والأرض ، فأرواح الشهداء فى حواصل طير خضر معلقة بقناديل من نور فى عرش الرحمن . وهذا هو الذى حصل للراهب وجليس الملك الذى تعرض لأبشع أنواع التعذيب فقد وضع المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ما رده ذلك عن دين الله عز وجل .

ولقد وعى هذا الدرس رسولنا محمد ﷺ ، وذكّر به أصحابه ، فحينما جاء إليه خَبَّاب بن الأرتّ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة وقال : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : « قد كان من قبلكم يُؤْخَذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه »[1] .

وهذا دليل على أهمية التربية بالقدوة ، والتربية بالأسوة .

● إن الأجل بيد الله : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ﴾ وهو مقدر قبل أن يخرج الإنسانُ من بطن أمه ، وبهذا حدث محمد

---

(١) رواه البخارى ؛ وفى رواية وهو متوسد برده قد لقينا من المشركين شدة .

ﷺ أصحابه . يقول أبو هريرة : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « أن أحدكم يُجْمَعُ خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » .

أى أن الأجل بيد الله والرزق بيد الله ، ولذلك فليس للإنسان عذر بين يدى الله إن هو قصر فى الدعوة لدين الله ، خوفا على أجله أو خوفا على رزقه .

وظاهر الأمر فى قصة أصحاب الأخدود أن الملك هو الذى قتل جليسه وقتل الراهب ، والأمر غير ذلك ، فجليس الملك لو لم يقتل بيد الملك لانتهى أجله فى تلك اللحظة ، وإنَّما أراد الله سبحانه وتعالى بهذا العمل أن يُغَنِّم جليس الملك الشهادة وجنَّةَ عرضها السموات والأرض ، وأن يبوء الملك بإثمه وإثم غيره . والدليل على أن الملك لا يملك لأحد موتا ولا حياة ولا نشورا أنه ما استطاع أن تمتد يده إلى الغلام بسوء .

فالغلام مجرد من كل حول وطول ، محاط به من كل جانب ، وصعدوا به الجبل ، ولكنهم عجزوا عن قتله ... وحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر ولكنهم عجزوا عن قتله أيضا لأن الأجل بيد الله . كما أن الغلام قال للملك : « لستَ بقاتلى » ، لأنهم لا يملكون إماتة أو إحَياءً .

« يا بنى احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، واعلم أنه لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

هذا توجيه محمد ﷺ ، الذى وعى هذا الدرس وأمثاله من كتاب الله عز وجل ، علنا نتدبر ما فيه وندرك أن الأمر جميعه بيد الله عز وجل .

فها هم جنود الطاغوت قد أجمعوا أمرهم بناء على أمر مليكهم – على قتل الغلام ، وها هو الغلام – مجرد من كل حول وطول مادى – قد أحيط به ، فماذا عساه يفعل ، لقد نفض يده من كل الأسباب المادية ، لقد طرق باب الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لقد خاطب الذى يصمد إليه فى الأمور

كلها ، لقد توجه بالدعاء إلى رب العزة عز وجل قائلا : « اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : « كفانيهم الله بما شاء » . وصدق الله العظيم القائل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ .

وهذا درس للمسلم ، إذا ضاقت به السبل ، وعز النصير ، وسدت أبواب الخلق أمامه ، فليطرق باب الذى لا توصد أبوابه ، الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . فليتوجه بالدعاء إلى من ينزل إلى السماء الدنيا فى الهزيع الأخير من كل ليلة قائلا : « هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأتوب عليه ، هل من صاحب حاجة فأقضيها له » .

هذا درس للمسلم ، ليكون على يقين أن الأجل بيد الله ، وأنه لا يوجد أحد فى الدنيا يستطيع أن يضره بشىء لم يكتبه الله عليه ، وليعلم أيضا أن الفرج مع الكرب ، وأن النصر يتنزل فى اللحظة التى قد ييأس فيها الإنسان : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنَّهم قد كذبوا جاءهم نَصْرُنَا ﴾ والغلام جاءه الفرج فى اللحظة التى هم الأعداء بقتله بعد أن صعدوا به قمة الجبل .

هذا درس للمسلم ، ليوقن أن الأمن والأمان الحقيقى فى جوار الله عز وجل ، وأن الله كاف عبده : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[1] .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى كفى عبده المؤمن شر تآمر المتآمرين . وعبَّر عنه هذا الغلام بقوله : « كفانيهم الله بما شاء » ، فالله حقيقة هو الذى كفى عبده المجرد من كل إمكانيات القوة المادية الظاهرة فى مواجهة طاغوت يملك كل مقومات البطش والطغيان .

ومن هنا تأتى أهمية التوكل على الله والثقة فى نصره وحمايته ، والتوجه الدائم

---

(١) الزمر : ٣٦ - ٣٧ .

إليه بالدعاء طلبا لفضله ورحمته : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنِّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ .

وهذا ما فعله الغلام ، لقد توجه إلى الله بالدعاء ، « اللهم اكفنيهم بما شئت » ، وكانت الاستجابة : « فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله » .

● ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾(١) .

ومن هؤلاء كان الراهب . ومنهم كان جليس الملك ، ومنهم كان هذا الغلام ، ومنهم كان أصحاب الأخدود . لقد آثروا الموت فى سبيل الله على النطق بكلمة الكفر .

ومن هنا تظهر أهمية الوفاء ، أمر الله بالوفاء ، الوفاء بالعقود ، العقود التى أمضوها مع الله عز وجل :

﴿ إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٢) .

● يجب على جند الإسلام أن يحرصوا على عدم القيام بأعمال تثير الطغاة، وتثير الجاهلية من حولها دون نتائج حاسمة ، فالطغاة على استعداد أن يقتلوا شعوبا بأكملها ، طالما بقواهم متربعون على عروشهم :

«فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحفرت ، وأضرم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم . ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .
(٢) التوبة : ١١١ .

صبى لها فتقاعست أن تقع فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنَّك على الحق »[1].

وهكذا رأينا أن الطاغية لم يرحم طفلا أو امرأة كل جريمتهم أنهم آمنوا بالله رب العالمين .

● **الأخذ بالعزيمة :**

إن الغلام قد أخذ بالعزيمة ولم يأخذ بالرخصة ، رغم أنه كان يمكن أن يقدم من المبررات ما تؤيد موقفه . فالدعوة وليدة ، والمؤمنون قلة ، والنصير عزيز ، وكان فى الإمكان أن يقول لابد من التريث والانتظار حتى يكثر أنصار الدعوة ، ولكنه لم يفعل ، لماذا ، لأنه أدرك أن دماء الشهداء لا تضيع هدرا ، وأنها على العكس هى التى تؤجج نور الإيمان فى قلوب بنى آدم . وأدرك أيضا ، أن العبرة بأداء البلاغ ، سواء آمن الناس أم كفروا .

ويبدو أن هذه كانت هى الوسيلة الوحيدة لإبلاغ دعوة الله ، وإقامة الحجة على أهل عصره لأن قبضة الطاغوت كانت شديدة ، ويبدو أن الفرصة لم تكن متاحة للدعوة العامة .

ومن هنا تفتق ذهن الغلام عن هذه الفكرة : « إنَّك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جزع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى به فإنَّك إن فعلت ذلك قتلتنى. فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جزع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام » .

● إن دم الشهداء لا يذهب هدرا ، فهو يؤجج جذوة الإيمان فى قلوب الناس ، والدليل على ذلك حينما خر الغلام شهيدا : « قال الناس : آمنا برب

---

(١) مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، ١٣٩٧ هـ ، ص ٥٥٦ – ٥٥٧ ، حديث رقم ٢٠٩٣ ، وبدايته : عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم » ورواه أحمد والنسائى .

الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام » .

ومن هنا يجب أن لا يأسى أصحابُ الدعوات على من يسقُطْ من ركب الإيمان شهيدا ، لأن فى هذا خير له ولدعوته .

● ونص كلام الرسول محمد ﷺ: «كان ملك فيمن قبلكم» دون أن يذكر اسمه ولو كان لذكر اسمه أهمية معينة ، لذكره سيد الخلق محمد ﷺ ، وإنّما فى تصورنا – وهذا اجتهاد – أن عدم ذكر الاسم مقصود حتى يظل النص ينسحب على عموم كل حاكم طاغية يستعين بالشعوذة والدجل لخداع جماهير أمته ، ويبطش بجند الإسلام الذين يؤمنون بالله رب العالمين .

● وعلى الطغاة أن يحذروا مكر الله عز وجل ولا يتصوروا أن الله سبحانه وتعالى تاركهم يبطشون ويقتلون جند الحق دون أن ينتصر لهم ، هذا لا يمكن أبدا ، ولكنه الاستدراج : ﴿ سنستدرجهم ﴾ ..

هذا يؤكده ما وقع فى قصة أصحاب الأخدود . لقد تصور الطاغية أنه بإمكانه أن يقضى على الحق ، ويجتث الدعوة وأصحابها بقتل الغلام ، وقتل جليسه والراهب . فإذا مات الغلام توقفت الدعوة إلى دين الله ، وسرى الرعب فى أوصال الناس فما عادوا يقبلون على الإسلام . وهذا وهم وقع فيه ، وهو من باب الاستدراج ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إنّ كيدى متين ﴾ .

فقتل الغلام لم ينْسِ قضية الإيمان أو الدعوة إلى الله ، ولكنه أجَّجها فى صدور من لم يعرفوها أو يسمعوا بها .

وبدلا من المؤمن الواحد (وهو الغلام) ، صار كل أهل القرية مؤمنين .

وهذا درس لأصحاب الدعوات ، إن سقوط شهداء منهم على الطريق هو زاد لهذه الدعوة ، وهو نور يجتذب القلوب التى أنعم الله عليها بنور الإيمان .

وليتعلموا عدم العجلة أو اليأس ، ولا يتصوروا أن الله قد ترك الطاغية وشأنه يعيث فى الأرض فسادا ، ويبطش ويدمر ، دون أن يأخذ على يده ،

مطلقا ، فهذا يخالف سنن الله الكونية ، فالله يقول : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾ .

● درس للمسلمين بعدم الخوف أو الوجل أو التهاون فى نصرة دين الله عز وجل .

ما هو مصير الطاغية الذى حرق المسلمين بالنيران لأنهم آمنوا بالله الواحد القهار ؟ ما هو مصير أعوان الطاغوت الذين صوروا له أن قتل هؤلاء المسلمين الموحدين ، سوف يخمد صوت التوحيد ؟

ما هو مصير بقية أفراد الشعب الذين وقفوا يشاهدون إخوانهم يحترقون ، دون أن يحركوا ساكنا ؟

إن القرآن الكريم يحكى لنا بقية الخبر : فالله سبحانه وتعالى توعد الظلمة والظالمين بعذاب جهنم وعذاب الحريق ، والجزاء من جنس العمل .

لقد سلط الله سبحانه وتعالى على ملوك حمير عدوا أزال دولتهم ، وأنزل بهم أنواع العذاب ، هذا العدو هم الأحباش .

لقد استأصل الله شأفة ملوك حمير ، وأزال ملكهم تماما كما فعل مع فرعون الطاغية ، ومع قوم هود الكافرين ، ومع قوم صالح المشركين .

وذلك لأن الله محيط بهم ، وبكل من يؤذى له وليا من أوليائه ، وبكل من يقف فى وجه الدعوة الإسلامية .

أما الشياطين الخرس ، وهم بقية الشعب الذين شاهدوا إخوانهم يذبحون وهم لا يحركون ساكنا ، فإنهم دفعوا الثمن غاليا ، لقد استباح الأحباش حماهم وأذلوهم ، وكان هذا نتيجة لسلبيتهم وعدم أمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر ، لو أخذوا على أيدى الظالم ، لنجوا جميعا ، ولكنهم تركوه فهلك وهلكوا جميعا .

إن الله يقول فى الحديث القدسى ما معناه : « ما من إنسان يقف موقفا ، يضرب فيه أخ له ظُلْمًا وهو قادر على نصره ولم يفعل ، نزلت عليه اللعنة وعلى من حضره » ، وقد كان .

لقد سلط الله عليهم الأحباش فأذاقوهم الذل وأذاقوهم أنكى أنواع الهوان .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ ﴾ .

* * *

الفصـــل الخامـــس

أصحـــاب الفيـــل

الله سبحانه وتعالى يرد كيد أصحاب الفيــل

الذين حاولوا غزو مكة لهدم بيت الله العتيــق

ومصادر معلوماتنا عن هذه الحادثة وهى مستفيضة الشهرة فى حياة الجزيرة العربية ، سورة الفيل ، وسورة قريش ، وما ورد بشأنهما فى كتب التفسير .

أولا : سورة الفيل :

الله رب العالمين يرد كيد أصحاب الفيل الذين حاولوا غزو مكة وهدم الكعبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية قبل[1] البعثة عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون حرما آمنا ولتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الإسلامية ، والرسالة الخاتمة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير ، فيها ...

وجملة ما تشير إليه الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى

(١) الشرح مأخوذ عن سيد قطب رحمه الله « فى ظلال القرآن » للأسباب التى أوردناها صفحة ٥٤ بالهامش .

لليمن ــ فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد إسقاط الحكم الحميرى العربى ــ وتسميه الروايات : (أبرهة) ، وكان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة ، على نية أن يصرف العرب عن بيت الله الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم ، إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية ....

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيت الله الحرام ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل سادنى هذا البيت ، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب وكانت معتقداتهم - على تهافتها - أفضل فى نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم (أبرهة) على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ليصرف الناس عنها ، وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده ، وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأخذ نفيلا ، الذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للات ، وبعثوا معه من يدله على الكعبة .

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة ، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ، فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك ... فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . ومنزل خليله إبراهيم عليه السلام ... فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ... فانطلق معه إلى أبرهة .. .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب ، أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه ، قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك ... فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز فى شعف الجبال ... ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروى عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

أما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء « أى حرنت » فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .. » وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وأنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب » . فهى حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة فى يوم الفيل .. .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكى عنهم القرآن الكريم ... وأصيب أبرهة فى جسده :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ وهو سؤال للتعجيب من الحادث والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ ويقولون حدث كذا عام الفيل ... وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات ... والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة .

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها إنما كان تذكيرا بأمر يعرفونه ، المقصود به ما وراء هذا التذكير ... .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك : ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ ﴾ .. أى ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه ... ولعله كان بهذا يذكر

قريشا بنعمته عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ، فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل ، فقد بينه فى صورة وصفية رائعة : ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .. والأبابيل : الجماعات والعصف الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أى فتيت طحين ، حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه . وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة » .

وفى هذا البيان الإلهى ردٌّ على هؤلاء الذين أرَّخوا لحملة أبرهة وأرادوا من وراء ذلك التشكيك فى القرآن الكريم والإسلام ، بإيرادهم معلومات غير صحيحة ، بل ويعلم البعض كذبها أمثال براون وجورج زيدان .

لقد زعم جورج زيدان أن أبرهة الحبشى قد هزم أمام مكة نتيجة اتحاد أهل مكة ودفاعهم عنها ، ونتيجة الوباء الذى أصاب جند أبرهة[1] (انظر تاريخ التمدن الإسلامى ، جـ ١ ، ص ٤١ ؛ العرب قبل الإسلام ، ص ٢٧٩) .

وهذا ما قال به دكتور محمد بيومى مهران « فيزعم أن المرض حين تفشى فى جيش أبرهة ارتد عن مكة » (دراسات تاريخية ، ص ٤٠٦) ويزعم أن النصر على أبرهة علّه كان إرهاصا بدعوة المصطفى ، (من دراسات تاريخية ، ص ٤٠٨) وأن محاولة أبرهة غزو مكة كانت فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية (دراسات تاريخية ، ص ٤٠٩) .

وسبق الدكتور حسن إبراهيم حسنى الدكتور محمد بيومى مهران فى قوله : « إن عام الفيل يعتبر فاتحة عهد جديد فى تاريخ حياة العرب القومية » ، ثم يضيف « ولا شك أن الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وعلى قريش خاصة ... فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها ونشر دين توحيد جديد !!! هو دين الحنيفية (تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، ج ١ ، ص ٥١) .

دروس وعبر :

وأول ما توحى به أخبار هذه الحادثة أن الله – سبحانه – لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى فى إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة – لا السنة المألوفة المعهودة – فهذا أنسب وأقرب ... .

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول ﷺ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ، وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجب من موقفهم العنيد .

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب – أبرهة وجنوده – أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض « المقدسة » حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ،

ولا يهيمن على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام .

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تنى أو تهدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين .

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور فى الأرض . بل لم يكن لهم كيان قبل بعثة محمد ﷺ . كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان ... ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه ولكنه ظل فى حالة بداوة أو فى حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث فى عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة ... ولكن الذى هيأ للعرب هذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ، نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر وذكروا أنهم مسلمون ، ومسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام ، وراية الإسلام وحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه .. وخرجوا من أرضهم جهادا فى سبيل الله وحده ولم يخرجوا ليؤسسوا

امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها . ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها . ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة ... ولكنها كانت كلها لله وفى سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه .

وما العرب بغير الإسلام ؟ وما الفكرة التى قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها ، والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم فى التاريخ دور .. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة . وأرادوا القيادة .. والله الهادى من الضلال .

ثانيا : سورة قريش :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت[1]

(١) التفسير من ظلال القرآن للأسباب التى أوردناها صفحة ٥٤ الهامش .

وتطهيره : ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ﴾ .. فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين . وجعل من يأوى إليه آمنا ، والمخافة من حوله فى كل مكان ... حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام ... لأمر يريده الله سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه . وصان حرمته ، وكان من حوله كما قال الله فيهم : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ؟ ﴾ .

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش مما ساعدهم على أن يسيروا فى الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن فى الجنوب وإلى الشام فى الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن فى الشتاء ، والثانية إلى الشام فى الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن فى الجزيرة من سوء ، وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب . فإن حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة فى هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، فى أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين . فصارتا لهم عادة وألفا .

هذه هى المنة التى يذكرهم الله بها - بعد البعثة - كما ذكرهم منة حادث الفيل فى السورة السابقة ، منة إيلافهم رحلتى الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين - وبلادهم قفرة جفرة ، وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ، وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين .. .

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ﴾ .. وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ . وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف ، وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا فى خوف فآمنهم من هذا الخوف .

وهو تذكير يستجيش الحياء فى النفوس ، ويثير الخجل فى القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته فى حياتها وما كانت فى ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولاقوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذى يتولى حماية بيته ، لم يواجهه بصنم ولا وثن ، ولم يقل له ... إن الآلهة ستحمى بيتها . إنما قال له : « أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه » ... ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق ، ولا يثوب إلى حق ، ولا يرجع إلى معقول .

*

الخاتمــة

لاحظنا أن أقدم ما تحكيه المصادر الإسلامية من أخبار القرون الأولى من حياة جزيرة العرب ، مارواه القرآن الكريم عن أمة « عاد » وسيرة نبيها هود عليه السلام :

﴿ فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾(١) وأخبار « عاد » و« ثمود » تُشكِّلُ جُزْءاً من تاريخ البشرية ، وأخبار « هود وصالح » تشكل على وجه التحديد جزءا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولقد حفظ لنا الله رب العالمين هذه الأخبار بما يعود بالنفع على البشرية عموما ، وعلى الأمة المسلمة على وجه الخصوص .

فمنذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، نزل قرآن على سيدنا « محمد » ﷺ يحوى دروسا عديدة من تاريخ البشرية ، من باب التربية ، والتوجيه ، والعظة والعبرة ، فالله سبحانه وتعالى ، وهو المربى ، وهو المتعهد بالإصلاح والتربية يقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾(٢) .

والمقصود بالخطاب هنا ، نحن ، بل البشرية كلها على مدار التاريخ ، وإن كانت الآياتُ قد نزلت على رسولنا محمد ﷺ وصحبه ، وتنسحب عليهم أيضا .

والهدف من هذا الخطاب الربانى هو تربية الفرد المسلم الذى يخاف ربه

---

(١) طه : ٥١ - ٥٢ .

(٢) يونس ١٣ - ١٤ .

ويؤدى فرضه ، ويحفظ عرضه ، من خلال تذكيره بتاريخ الأجيال السابقة التى أهلكها الله سبحانه وتعالى نتيجة لشركها بالله عز وجل : ﴿ لما ظلّموا ﴾ ؛ وإعراضها عن دعوة رسلها وأنبيائها ، ومن خلال تذكير المخاطب أيضا أنّهُ فى الحياة الدنيا ، مستخلف بعد تلك الأجيال التى هلكت : ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾[1] .

ومن هذه الأجيال التى أهلكها الله سبحانه وتعالى وذكر أخبارها القرآن الكريم ، قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم شعيب ، وقوم لوط ، وقوم موسى الذين أشركوا بالله عز وجل وكذبوا رسله .

وفى هذا الذكر القرآنى ، توجيهات لبنى آدم كلهم ، حكاما ومحكومين ، رعاة ورعية ، أفرادا وجماعات نذكر منها :

- أن أعظم وأشرف قضية فى تاريخ حياة أبناء آدم ، هى توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده وحده بالعبادة ، فلهذا خلقهم ، : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[2] والعبادة لا تقف عند حد الشهادتين والقيام بالفروض ، ولكن تمتد لتشمل جنبات الحياة كلها بل الممات : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[3] . فلابد أن تقوم حياة الإنسان كلها على توحيد الله وطاعته فيما أمر ونهى ، كما يحرص على أن يموت على التوحيد لا يشرك باللهشيئا ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[4] . كما يحرص على أن تكون كلمة الله هى العليا فى شئون الحياة كلها ، وعلى الأرض كلها .

من أجل هذه القضية ، أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وذلك يعنى أن وظيفة الرسل من أشرف الوظائف ، والغاية التى من أجلها بعثوا ، هى أشرف الغايات .

---

(١) يونس : ١٤ .
(٢) الذاريات : ٥٦ .
(٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .
(٤) البقرة : ١٣٢ .

وتبعا لذلك فإن ذلك يعنى أن هذه هى وظيفتنا وهذه غايتنا ، حكاماً ومحكومين ، أفراداً وجماعات ، ليس لنا أن نحيد عنها ، ولا أن نستبدلها بغيرها ، ولا أن نتجاهلها إلى سواها ، وإلا اعتبر ذلك نكوصا عن حمل دعوة الله التى كُلْفِنَا أمانة حملها ، فتلك كانت القضية التى حمل أمانتها والدعوة إليها هود عليه السلام : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾(٤) . وإليها دعا صالح عليه السلام : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إليه غيره ﴾(٥) ومن قبل دعا إليها نوح ومن بعده دعا إليها إبراهيم ولوط وشعيب وموسى وسليمان وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

تلك هى قصة التوحيد ، توحيد الله عز وجل الخالق البارىء ، المصور ، التى يجب أن تأخذ حجمها ووضعها الحقيقى فى حياة البشر كلها ، وحجمها يتمثل فى أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى . من أجل تلك القضية استخلف الله أبناء آدم فى الأرض واستعمرهم فيها ، من أجل تلك القضية عاش الأنبياء والرسل حياتهم يدعون قومهم ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، بالحكمة والموعظة الحسنة أحيانا ، وبالترهيب أحيانا أخرى .

ومن أجلها ، قام ويقوم الصراع بين أنصار هذه القضية وبين المعارضين لها ، بين حزب الله وبين حزب الشيطان .

ومن أجلها كانت المعجزات التى أيد الله بها رسله ، ومن أجلها وفى سبيل نشرها ، تلقى الرسل والصف المؤمن العنت والمشقة من الصف الكافر ، بصدر رحب أملا فى ثواب الآخرة .

من أجل قضية التوحيد سخر الله سبحانه وتعالى القوى الكونية لتهلك الكافرين والمكذبين بها .

من أجل هذه القضية كان يتحرك ، ويجب أن يتحرك الموحدون المخلصون من أبناء آدم ، حكاما ومحكومين ، رعاة ورعية ، فرادى وجماعات .

من أجل هذه القضية ، عاش محمد ﷺ وصحبه ، ومن أجلها عمل محمد ﷺ وصحبه ، وعلى نفس الطريق سار الأنبياء والمرسلون من قبل .

من أجل هذه القضية أرسل رسول الله ﷺ الرسل إلى الأكاسرة والأباطرة وغيرهم : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » من أجلها تحمل رسول الله محمد ﷺ ومن قبله الرسل الأذى ، والتآمر ، والإخراج من بين القوم والعشيرة والوطن ، من أجلها تحمل عمار وسمية وياسر وبلال التعذيب يقولون « أحدٌ أحَدْ » .

من أجل توحيد الله ، أقام الرسول محمد ﷺ دولة الإسلام التى ترفع علم الجهاد على مدار حياتها . ومن أجل توحيد الله ، وأن لا يُعبد على الأرض غيره سبحانه وتعالى ، جيشت الجيوش وأرسلت البعوث والسرايا على عهد محمد ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، بل وعلى عهد الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية .

ماذا يعنى ذلك بالنسبة لنا وللبشرية كلها : أو بمعنى آخر ما هو موقفنا نحن من هذه القضية ؟ .

إن من يعمل من أجل هذه القضية فهو فى سبيل الله ، ومن لا يعمل لها فهو مقصر فى نصرة دين الله ؛ من يعمل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى فهو فى دين الله ، ومن لا يعمل لها فهو فى سبيل الشيطان .

من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى يجب أن تكون حصيلة كد البشرية وسعيها ، حكاما ومحكومين . هكذا تعلمنا من دراستنا لسير الأنبياء فى جزيرة العرب ، فما هو واقع البشرية الآن ؟ .

إن غالب أبناء آدم لا يعملون من أجل هذه القضية ، إنَّهم يتحركون من أجل تحقيق رغباتهم وشهواتهم ولا يتحركون لتوحيد الله ولا لنصرة دين الله بل إن حصيلة كدهم وسعيهم لغير الله ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ ونسوا ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة نتيجة تقصيرها فى القيام لنصرة دين الله عز وجل ، ونتيجة شركهم .

ففى القرآن الكريم يروى الله سبحانه وتعالى لنا ، تاريخ الأمم السابقة التى أهلكها الله عز وجل بسبب ظلمها وإجرامها ، بعد الإعذار إليها ، من هذه الأمم السابقة التى أهلكها الله عز وجل ، قوم نوح ، وقوم عاد ، وقوم ثمود ، وقوم مدين ، وقوم لوط ، الذين كفروا بالله وأشركوا به ولم ينتهوا عن الحرام .

هذه الأقوام - كما يروى الله عز وجل - قد أهلكها الله بسبب ظلمها ، والشرك ظلم عظيم ، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل لهم الرسل ليبينوا لهم أنهم مشركون وأنهم مطالبون بالإيمان بالله عز وجل ، فرفضوا دعوة الرسل وأصروا على شركهم أو ظلمهم ، مما أدى إلى استئصال شأفتهم وإهلاكهم ؛ ثم يعقب الله عز وجل على هذا الخبر قائلا : ﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ . أى أن الهلاك حاضر لكل مجرم يكفر بالله عز وجل ويرفض دعوة الإسلام فى كل زمان ومكان وبعد عرض أخبار السابقين وما نزل بهم من عذاب الله ، يتوجه الله عز وجل بالحديث لمحمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم ولنا : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ أى أن الأمم فى مرحلة اختبار والله مطلع عليها ، هل تفسد أم تصلح . وأعظم الإفساد الشرك بالله وأعظم الإصلاح توحيد الله عز وجل .

فما هو موقفنا وموقف البشرية اليوم من هذه القضية ؟؟ إن الكثير من بنى البشر قد خرجوا من دين الله ودخلوا فى دين الطاغوت . يتضح ذلك من عقائدهم : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[1] . فالكفر له دول تنشره وتنافح عنه « مثل دول المعسكر الشيوعى » ، بل وسعت وتسعى إلى ردّ المسلمين عن دينهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم .

يتضح ذلك من أنظمة حكمهم ، التى نحت شريعة الله عن حياتهم ، واستبدلتها بأنظمة غير إسلامية . اشتراكية ، ماركسية ، ديمقراطية ... الخ .

يتضح ذلك من أنظمتهم الاقتصادية ، والثقافية والتعليمية ، والاجتماعية .. وكل ذلك يثبت أنها قد خرجت عن نظام الله وشرعه ، إلى نظام الطاغوت وشرعه .

أن الكثيرين من أبناء المسلمين قد نسوا قضية توحيد الله عز وجل وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا ، يتضح ذلك من أنماط سلوكهم ، وصداقاتهم ، ومآكلهم ومشاربهم . يدلنا على ذلك أنهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل ، يدلنا على ذلك أنهم رضوا بالحياة الذليلة نتيجة لحب الدنيا وكراهية الموت ، وتنكيس علم الجهاد .

يدلنا على ذلك موالاتهم للكافرين ، يدلنا على ذلك تقليدهم للطاغوت وأنصاره ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾[1] .

وحتى لا ننسى وتنسى البشرية عهدها مع ربها وميثاقها ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ عرضنا نموذج حكاه القرآن الكريم من علم الله من أخبار القرون الأولى يؤكد لنا أن قضية توحيد الله سبحانه وتعالى ، لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، كانت الشغل الشاغل للحاكم والمحكوم على السواء ، هذا النموذج نلتقطه من سيرة سليمان عليه السلام وعلاقته بدولة سبأ . هذه القضية هى التى من أجلها أرسل الرسل ومنهم هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام .

ومن خلال استعراضنا لسير هؤلاء الأنبياء وغيرهم نقف على المعالم الهامة المثالية التى يرسى قواعدها القرآن الكريم .

صفات المجتمعات غير الإسلامية « الجاهلية » :

إن الجاهليات التى عاشت على أرض الجزيرة العربية لها صفات مشتركة ، هذه الصفات :

أولا : الشرك بالله سبحانه وتعالى والإيمان بالطاغوت .

ثانيا : رفض إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، والانصياع لنظام الطاغوت وأوامره .

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

ثالثا : إن الملأ ، أصحاب الجاه والسلطان والمال ، غالبا ، هم أعداء الدعوة إلى الله ، وهم المترفون ، الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه وكذّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ﴾ [1] والسبب فى وقوفهم فى وجه قيام حكم الله فى الأرض ، راجع إلى أن قيام سلطان الله فى الأرض يعنى انهيار سلطانهم ، لأن الناس بدخولهم فى سلطان الله وخضوعهم لنظام الله وشرعه ، سيخرجون من العبودية للطاغوت ، وذلك يعنى أن الملأ الكافرين لن يجدوا من يستعبدونه ، أو يضحون به على مذابح أهوائهم ، لن يجدوا من يركع لهم ، أو يصفق لهم ، أو يكون مطية لرغباتهم وطموحاتهم الآثمة ؛ لأن الناس بإيمانها بالله الواحد القهار ، وإفراده وحده بالعبادة ، يكونون قد تحرروا حرية حقيقية .

بالإضافة إلى ما سبق ، فإن قيام المجتمع المسلم الذى يؤْمر فيه بالمعروف ويُنهى فيه عن المنكر ، يحول بين الملأ وبين الاستمتاع بشهواتهم المحرمة ، فلا يسمح لهم بالتعاملات التى تقوم على الربا ، ولا يسمح لهم ببيع أو شراء السلع المحرمة شرعا كالخمر أو الحشيشة ، ولا يسمح لهم بتطفيف الكيل أو الميزان ، ولا يسمح لهم بغش الناس أو استغلالهم ، ولا يسمح لهم بالزنا ، أو ممارسة الشذوذ بكافة أنواعه ، أى أنه داخل المجتمع لا يسمح للناس أن تعيش دون الخضوع لنظام الله وشرعه .

إن قيام المجتمع المسلم الذى تكون فيه كلمة الله هى العليا ، تجعل ميزان المفاضلة بين الناس قائما على أساس التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] وأصحاب الجاه والسلطان لا يطيقون أن يقف الفقير المسلم إلى جوار صاحب الجاه والسلطان ، لأن ذلك - كما صوّر لهم الشيطان - ينتقص من قدرهم ، ويجعلهم على قدم المساواة مع غيرهم ، وهذا مالا يطيقونه .

هذا الموقف العدائى للدعوة إلى الله من قبل « الملأ » ، والصفات التى

---

(١) المؤمنون : ٣٣ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

يتصفون بها تضع أيدى المسلمين على داء خطير يهدد الحضارات ويهدد القيم والمبادىء **هذا الداء هو الترف** ومن هذا الداء المدمِّر - الذى حجب أصحاب الجاه « الملأ » عن الدخول فى دين الله عز وجل : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ حذّر رسولنا محمدٌ ﷺ ، الأمة الإسلامية بقوله فى حديث : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنّى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »[١] وكان هو وأصحابهُ رضى الله عنهم ، صورة حية للبعد عن الترف والزهد فى الدنيا ، يروى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لقد رأيت رسول الله ﷺ يظلُّ اليومَ يلتَوِى ما يجدُ من الدّقَلِ[٢] ما يملأ به بطنه » .

ومن الأدواء المدمرة التى يتصف بها أعداء الإسلام ، الكبر ﴿ فأما عادٌ فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منّا قوة ﴾[٣] وما أكثر المتكبرين فى عالمنا المعاصر والذين يقولون بنفس الكلمة الفاجرة التى قالت بها « عاد » لقد نسى هؤلاء الفجرة الفسقة أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة[٤] .

إن الكبر يحجب القلب عن الإيمان بالله عز وجل ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾[٥] ومن هنا حذَّر رسول الله محمد ﷺ أمته من الكبر : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من كبر »[٦] ، وقال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : « العِزُّ إزارى ، والكبرياء ردائى فمن يُنازعنى فى واحد منهما فقد عذبتهُ »[٧] ، ومن هنا تظهر أهمية التواضع : « وما تواضع أحَدٌ لله إلا رفعه الله »[٨] .

ومن الأدواء التى أصيب به الملأ « حب الافتراء » : ﴿ إن أنتم إلا مفترون ﴾[٩] ، وعدم القدرة على التفكير المتعقل : ﴿ أفلا تعقلون ﴾[١٠] ،

---

(١) متفق عليه .
(٢) الدقل : ردىء التمر ؛ رواه مسلم .
(٣) فصلت : ١٥ .
(٤) فصلت : ١٥ .
(٥) الأعراف : ١٤٦ .
(٦) رواه مسلم .
(٧) رواه مسلم .
(٨) رواه مسلم .
(٩) هود : ٥٠ .
(١٠) هود : ٥١ .

والإجرام : ﴿ولا تتولوا مجرمين ﴾ ، والجحود بآيات الله ، وعصيان الرسل ، واتباع أمر كل جبار عنيد ؛ والبطش بجند الحق بطش جبارين ، والجهل ؛ وتعطيل وسائل الإدراك التى أنعم الله بها عليهم : ﴿ ولقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

ومن الأدواء التى ابتلى بها الملأ من القوم الذين يعادون أصحاب الدعوات : « استحباب العمى على الهدى » ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٢) .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الجاهلية تحرص على الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية وأصحابها ومحاولة صرف الناس عن الدخول فى دين الله بشتى الوسائل ، بل ومحاولة رد الذين أسلموا عن إسلامهم .

فهاهم الملأ من القوم ، قوم صالح عليه السلام يرفضون التخلى عن آلهتهم والكفر بطواغتيهم : ﴿ وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ﴾(٣) ، ولم يقف تصرفهم عند هذا الحد ، بل انطلقوا يشككون الناس فى الدعوة وأصحابها لصرفهم عنها بما يطلقون من اتهامات وإشاعات باطلة ضد أصحاب الدعوات : فهاهم قوم هود عليه السلام يتهمونه بالسفاهة والكذب : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنّا لنراك فى سفاهة ، وإنّا لنظنك من الكاذبين ﴾(٤) .

﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾(٥) .

﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .
(٢) فصلت : ١٧ .
(٣) هود : ٥٣ .
(٤) الأعراف : ٦٦ .
(٥) هود : ٥٤ .

أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾(١) .

وهاهم الملأ من قوم صالح يتهمونه بالسحر : ﴿ قالوا إنّما أنت من المسحرين ﴾(٢) ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾(٣) ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾(٤) ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾(٥) .

وهى نفس التهم التى كانت تكيلها الجاهلية لشعيب عليه السلام : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾(٦) .

وفى هذا بيان لأصحاب الدعوات ، من أن موقف الجاهلية فى مواجهة الإسلام موقف واحد لم يتغير على مدار التاريخ : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾(٧) .

وهذه التهمة وجهها الملك الطاغية إلى الغلام المسلم فى حادثة أصحاب الأخدود : « أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص »(٨) .

وفى هذه التصرفات تبدو استهانة الجاهلية بعقاب الله عز وجل ، وعدم ازدجارها بالموعظة : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾(٩) .

---

(١) المؤمنون : ٣٣ .
(٢) الشعراء : ١٥٣ .
(٣) الشعراء : ١٥٤ .
(٤) النمل : ٤٧ .
(٥) القمر : ٢٥ .
(٦) الأعراف : ٦٦ .
(٧) الذاريات : ٥٣ .
(٨) فقرة من حديث رواه مسلم لرسول الله ﷺ .
(٩) الأعراف : ٢٢ .

﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين ومانحن بمعذبين ﴾[١] .

﴿ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾[٢] .

كما يبدو أيضا استعجالها لعذاب الله واستخفافها به :

﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[٣] .

والجاهلية لا تريد ولا ترغب للحياة أن تستقيم على أمر الله ، بل تحرص على شيوع الفساد ، وتحرص على صدّ المؤمنين عن فعل الخيرات والاستقامة على منهج الله ، توطئة لردهم عن دينهم فهاهو شعيب يكشف عن هذه الحقيقة فى قوله لقومه :

﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾[٤] .

رابعا : وللمجتمع الجاهلى سمت بارز فى محاربة الإسلام وأهله ، يظهر هذا فى تهديد المؤمنين وخاصة الضعفاء للارتداد عن دينهم : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾[٥] .

وهنا تبدو حقيقة ماثلة أمام العيان ، إن الضعفاء لم يعودوا ضعافاً ، لقد

---

(١) الشعراء : ١٣٨ .
(٢) هود : ٦٢ .
(٣) الشعراء : ١٨٧ .
(٤) الأعراف : ٨٥ .
(٥) الأعراف : ٧٥ - ٧٦ .

سكب الإيمان بالله فى قلوبهم طمأنينة وقوة وشجاعة ، لم يعد ينفع معها تهديداً أو وعيد لصرفهم عن إسلامهم .

خامسا : وحينما تفشل الجاهلية فى ردّ الناس عن إسلامهم تلجأ إلى وسائل أخرى من وسائل الكيد ﴿ فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾[1] من هذه الوسائل :

١ – محاولة قتل الداعية إلى الله ، نلمح ذلك فى تآمر أهل الجاهلية الثمودية لقتل صالح : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنّا لصادقون ﴾[2] .

ونلمح ذلك فى تهديد شعيب عليه السلام بالرجم :

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾[3] .

ويأتى التهديد بالقتل فى أعقاب تهديد بالإخراج من البلاد هو والذين آمنوا معه ، لو لم يرتدوا عن دينهم ، عن إسلامهم :

﴿ وقال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُن فى ملتنا ، قال أولو كنا كارهين ؟ ﴾[4] .

هذا الموقف الذى يصل إلى حد التآمر لاغتيال الدعوة وأصحابها ، موقف مكرور فى تاريخ البشرية ، وهى صورة من صور الصراع بين الحق والباطل ، يدلنا على ذلك موقف الجاهلية العربية من خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾[5] .

---

(١) هود : ٥٥ .
(٢) النمل : ٤٨ – ٤٩ .
(٣) هود : ٩١ .
(٤) الأعراف : ٨٨ .
(٥) الأنفال : ٣٠ .

وذلك يتكرر كثيراً فى عالمنا المعاصر ، فليكن أصحاب الدعوات على علم بالمدى الذى يصل إليه حقد الجاهلية على الإسلام وأهله . وقد شاهدنا نموذجا لذلك فى حادثة أصحاب الأخدود ، لقد قتلوا الراهب وجليس الملك والغلام وأصحاب الأخدود بطريقة يقشعّر لهولها البدن . لقد نشروا الراهب بالمنشار نصفين ، وأحرقوا أهل القرية ولم يرحموا امرأة أو طفلا .

هذا هى سمت الجاهلية وأسلوبها فى مواجهة الإسلام وأهله حينما تكون الدعوة إلى الله مستضعفة غير ممكن لها فى الأرض .

أما إذا كانت الدعوة ممكن لها فى الأرض ، وكان الإسلام يتمثل فى واقع حى يملك كل مقومات القوة المادية ، يكون للجاهلية أسلوباً آخر يعتمد على استخدام الهدية لتليين قلب الداعية لمحاولة صرفه عن دعوته :

نلمح ذلك فى سيرة سليمان عليه السلام ؛ فقد كانت الدعوة الإسلامية ممكن لها فى الأرض ، وحينما وجه سليمان عليه السلام رسالة إلى ملكة سبأ :

﴿ إنَّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾ . هنا أسقط فى يد الجاهلية السبئية ، فهى لا تستطيع أن تواجه القوة التى مكن الله بها لسليمان عليه السلام ، ومن هنا لجأت إلى حيلة أخرى لصرف سليمان عن دعوته :

﴿ وإنّى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

وهذا درس لأصحاب الدعوات ، إن الجاهلية – حينما تعجز عن صرف الناس عن إسلامهم تحت ضغط التهديد والإرهاب والوعيد ، تلجأ إلى حيلة أخرى ، وهى التلويح للدعاة بالمناصب ، والإغراءات المادية الدنيوية ، وهذا درب آخر من دروب الابتلاءات التى قد يتعرض لها الداعية إلى الله ، والتى يجب أن يحذرها ويتجاوزها .

سادسا : وللمجتمع غير المسلم صفة بارزة وهى عدم شكر الله على النعمة التى ينعم بها ، وشكر النعمة يستلزم معرفة حق المنعم سبحانه وتعالى وما يليق به ، وتوحيده وإفراده وحده بالعبادة ، فلا يُدعى غيره ، ولا يرجى من

سواه ، وبعد ذلك يأتى تصريف النعم فى الوجهة المشروعة التى بينها الله سبحانه وتعالى ؛ والملأ من القوم فى المجتمع الجاهلى ، لا يفعلون ذلك ، وينفقون أموالهم فى الصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى .

سابعا : ومن صفات المجتمع غير المسلم ، فصله بين لا إله إلا الله ومقتضياتها ، فهو يرى أنَّ الإيمان كَلمةٌ تقال باللسان ، وليس لها آثار ومقتضيات فى حياة البشر . نلمح ذلك فى استنكار المجتمع الجاهلى لدعوة شعيب عليه السلام حينما أعلمهم بأن لا إله إلا الله لها مدلول ولها مقتضى ، هذا المقتضى هو خضوع الحياة لنظام الله وشرعه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنِّى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(١) .

فهنا بيان أن من مقتضيات لا إله إلا الله أن تكون المعاملات التجارية والمالية « الاقتصادية » خاضعة لنظام الله وشرعه .

ولكن الجاهلية لا ترى ذلك ، إنها ترى أن الحياة يجب أن تجرى غير مضبوطة بنظام الله وشرعه : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ﴾ .

﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾(٢) .

ثامنا : حرص الجاهلية على صد الناس عن دين الله يتضح ذلك من قول شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾(٣) .

---

(١) هود : ٨٥ – ٨٧ .
(٢) هود : ٨٧ .
(٣) الأعراف : ٨٦ .

تاسعا : إن الجاهلية لا ينقصها الدليل أو البينة لكى تؤمن بالله عز وجل ، والقرينة على ذلك نلمحها فى سيرة صالح عليه السلام ، لقد سألوه آية على صدق دعوته ، فاستجاب الله لدعوة رسوله : ﴿ إنّا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ .

فماذا كانت النتيجة ، هل آمنوا ؟ هل تراجعوا عن عداوتهم بغير وجه حق ؟ .

﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ . لقد تآمروا على البينة ، لقد قتلوا الناقة لأنّها أعانت البعض على إعلان إسلامهم لله رب العالمين ، فخشوا إن تركوا البينة ، وتركوا الدعوة وصاحبها أحراراً ، فسوف يؤدى ذلك فى النهاية إلى قيام المجتمع المسلم ، ومن هنا تصورت الجاهلية أنها بقتلها للناقة سوف توقف نمو الدعوة الإسلامية .

وفى هذا درس لأصحاب الدعوات ، أن الجاهلية حينما تقف فى وجه الإسلام وأهله حتى لا يحكم حياة الناس ، لا يعنى ذلك قصور فى الإسلام ، أو قصور فى الدعاة لأنهم لم يحسنوا عرض إسلامهم ، أو لأنه يعوزهم البينة للتدليل على صلاحية دينهم ، وإنما ذلك مرجعه إلى انحراف الجاهلية ، ورغبتها فى أن لا تكون شريعة الله حاكمة .

إن الذين يرفضون الخروج من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام جهلة بحقيقة هذا الدين : ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾[1] ، وعطلوا أجهزة الإدراك التى أكرمهم الله بها :

﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[2] .

---

(١) الأحقاف : ٢٣ .
(٢) الأحقاف : ٢٦ .

وهم لا يحبون أن توجه إليهم النصيحة :

﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[(١)] .

وهم يؤمنون بالطيرة ؛ نلمح هذا فى قول ثمود لنبيهم صالح عليه السلام :

﴿ قالوا اطَّيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾[(٢)] .

ويستحبون العمى على الهدى :

﴿ وأمَّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[(٣)] .

والجاهلية لا تطيق الحق متحركا أمامها ، لأن ذلك يذكرها بجرائمها وانحرافاتها ، ولذلك فهى حريصة على رده إلى ملتها أو إخراجه من بين أظهرها ، ولا تطيق أن تترك الأمر لحكم الله عز وجل وعدله وقضائه ، نلمح ذلك فى سيرة شعيب :

﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملَّتنا ﴾[(٤)] .

وأهل الجاهلية لا يفقهون الحق : ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ أى أن العيب ليس فى الحق ، ولكن العيب فيمن يرفضونه بسبب جهلهم ، وعدم فقههم إياه . وأهل الجاهلية عاداتهم وتقاليد الآباء أعز عليهم من إسلام الوجه لله رب العالمين : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾[(٥)] .

---

(١) الأعراف : ٧٩ .

(٢) النمل : ٤٧ .

(٣) فصلت : ١٧ .

(٤) الأعراف : ٨٨ .

(٥) الأعراف : ٧٠ .

موقف الدعاة إلى الله إزاء معاندة الجاهلية ورفضها الاستسلام لله رب العالمين :

إن الداعية ، عليه إزاء معاندة الجاهلية وعدائها لدين الله عز وجل ، واجبات مطالب القيام بها :

أولا : البلاغ الكامل : ﴿ وأبلغكم ما أرسلت به ﴾[1] ، ﴿ ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾[2] .

ثانيا : البراءة من الشرك والمشركين : ﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنّى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾[3] .

ثالثا : التوكل على الله عز وجل والإنابة إليه ، مع تفويض الأمر إليه : ﴿ إنّى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[4] ؛ ﴿ على الله توكلنا ﴾ ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

رابعا : التميز والمفاصلة وطلب النصرة من الله عز وجل : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾[5] .

خامسا : الصبر والانتظار : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾[6] ، ﴿ فانتظروا إنّى معكم من المنتظرين ﴾ .

سادسا : الثبات وعدم الرِّدة عن دين الله عز وجل ، مع الاستمرار فى أداء واجب البلاغ ، لقد حاول أهل مدين أن يصرفوا شعيبا عن دعوته ، ويردوه إلى ملتهم . فكان الثبات ؛ وقال شعيب عليه السلام :

---

(١) الأحقاف : ٢٢ .
(٢) هود : ٥٧ .
(٣) هود : ٥٥ .
(٤) هود : ٥٦ .
(٥) المؤمنون : ٢٦ .
(٦) الأعراف : ٨٧ .

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ ، ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ .

سمت المجتمع المسلم :

للمجتمع المسلم سمات مشتركة :

أولا : الكفر بالطاغوت والإيمان بالله عز وجل .

ثانيا : إخضاع الحياة برمَّتّها لنظام الله وشرعه .

ثالثا : الحرص على أن تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها ، ولذلك فإنهم يدعون إلى الله عز وجل ، دواما على بصيرة وموضوع الدعوة : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . والعبادة لا تقف عند حد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج ولكنها العبادة بمفهومها الشامل : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(١) .

فنلمح ذلك فى عرض شعيب عليه السلام لقضية التوحيد :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إنِّى أراكم بخير وإنِّى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٢) .

فالقضية هنا قضية الأمانة والعدالة بعد قضية العقيدة والدينونة ، أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة لا إله إلا الله . فلا إله إلا الله لها مقتضيات وهى أن تكون حياة الناس ومعاملاتهم منبثقة عن ذلك الأصل الكبير ، وهى جزء من المفهوم الشامل للعبادة .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ .

(٢) هود : ٨٥ .

وهذا هو الذى استنكرته الجاهلية ، أن يكون هنالك علاقة بين شهادة لا إله إلا الله ، وبين المعاملات ولذلك نراهم يعترضون :

﴿ قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾(1) .

فهم يدركون أو لا يريدون أن يدركوا ، أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدون من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية أو التعليمية .

ومن هنا ندرك أن عداء الجاهلية للإسلام وحرصهم على أن لا تقوم حياة الناس على نظام الله وشرعه ، لأن ذلك يعنى انهيار سلطانهم الذى يقوم على عدم الأمانة ، والسرقة ، والغش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والاستخفاف بعقول الجماهير .

ومن هنا نفهم لماذا تقف الجاهلية ذلك المواقف العدائى من أصحاب الدعوات . وقد عرضنا لذلك ، وبقى علينا أن نعرض لأسلوب الدعاة إلى الله ، وطريقهم فى عرض دين الله عز وجل .

إن أصحاب الدعوات يجب أن يحرصوا على أن يعرضوا قضية الإسلام عرضا شاملا ، وأن يكون البلاغ كاملا : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾(1) .

وعلى صاحب الدعوة أن يدرك أهمية الإخلاص ، أى أن يقصد بعمله هذا رضوان الله وثوابه ، فالعمل لكى يكون مقبولا من الله عز وجل ، لابد وأن يتوفر فيه شرطان : الإخلاص ، وأن يكون صوابا ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

---

(1) هود : ٨٧ .

يبين لنا ذلك قول الله سبحانه وتعالى على لسان هود عليه السلام وهو يدعو قومه : ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾[1] وهى نفس الحقيقة التى نطق بها صالح عليه السلام[2] ، وشعيب عليه السلام[3] .

وعلى الداعية أن لا يجهل على الناس ، إذا جهلوا عليه ، بل يكون مهذبا عف اللسان . نلمح ذلك فى :

موقف هود حينما اتهمه قومه بالسفاهة والكذب :

﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾[4] فهى النصح والأمانة ، والله يدافع عنه من فوق سبع سموات نرى ذلك واضحا فى قول الله عز وجل عن قوم صالح حينما اتهموه بالكذب : ﴿ أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ ، وجاء الرد الإلهى : ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾[5] .

وإبلاغ دعوة الله يستلزم أن يكون للداعية ثقافة تاريخية ، يذكر من خلالها المدعو بمصائر الأمم السابقة :

فهاهو هود عليه السلام يذكر قومه بأخبار قوم نوح :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[6] ، وفى هذا العرض ، يبدو العديد من الدروس المستفادة :

---

(١) هود : ٥١ .

(٢) الشعراء

(٣) الشعراء

(٤) الأعراف : ٦٨ .

(٥) القمر : ٢٥ - ٢٦ .

(٦) الأعراف : ٦٩ .

(أ) أن الاستخلاف فى الأرض نعمة من نعم الله عز وجل ، وأثناءها تكُونُ الأمم فى موضع الاختبار .

(ب) أنهم من ذرية الناجين مع نوح من الطوفان ، أى من ذرية قوم مسلمين .

(ج) ذكر نعمة الله عز وجل ، يستوجب معرفة قدر المنعم سبحانه وتعالى ، وعبادته وحده ، وشكره على هذه النعمة بالإصلاح فى الأرض ، والإصلاح فى الأرض لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت كلمة الله هى العليا فى حياة الأمم ، أى أن تكون شريعة الله حاكمة .

(د) أن الفلاح لا يمكن أن يتحقق للأمة المسلمة إلا إذا أدركت واجبها وقامت به على أكمل وجه :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[1] .

وهاهو صالح عليه السلام ينهج نفس النهج الذى انتهجه هود عليه السلام ، 'ذكر قومه بأخبار قوم عاد :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد[2] ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

فصالح عليه السلام يبين لهم تبعات التمكين ، وهى شكر النعمة التى من مظاهرها عدم الإفساد فى الأرض ، والإفساد فى الأرض له ملامح شتى أخطرها العمل على تنحية شريعة الله عن حكم حياة البشرية ، والوقوف فى وجه الدعوة إلى الله وفى وجه الناس والإقبال على الإسلام ، وصرفهم عن دين الإسلام إلى غيره من العقائد الفاسدة ، وهذا بجملته يمكن أن يندرج تحت العمل على إخراج الناس

(١) الحج : ٤١ .
(٢) الأعراف : ٧٤ .

من العبودية لله للعبودية لغيره ، ومن النور إلى الظلمات .

ونَهجَ شعيب عليه السلام نفس الطريقة فى تذكير قومه بتاريخ السابقين :

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾(١) .

وهنا تذكير بالقوارع ، والعذاب الذى أنزله الله عز وجل بالأمم السابقة ، علهم يفيقون ؛ فهو يذكرهم بالذين أغرقهم الله بالطوفان ، والذين أهلكهم الله سبحانه وتعالى بالريح الصرصر العاتية ، والذين أهلكهم الله بالصيحة ، والذين أهلكهم الله بحجارة من سجيل وهذا أسلوب آخر من الأساليب التى يلجأ إليها **الدعاة لإيقاظ الغافلين من غفلتهم . وعلى الداعية إلى الله أن يقدم إلى المدعوين ، سواء كانوا أمما أم أفرادا ، المنهج الربانى الذى تصلح به حياتهم إذا طبقوه ، وأسوتنا فى ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومنهم نبى الله هود عليه السلام الذى قدم البرنامج التالى :**

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾(٢) .

وهو نفس المنهج الذى قدمه صالح عليه السلام إلى قومه :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾(٣) ؛ ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾(٤) .

وهو نفس المنهج الذى قدمه شعيب عليه السلام لقومه :

﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربِّى رحيم ودود ﴾(٥) .

---

(١) هود : ٨٩ .
(٢) هود : ٥٢ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) النمل : ٤٦ .
(٥) هود : ٩٠ .

وسبق هؤلاء الرسل عليهم السلام رسول كريم هو نوح عليه السلام :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنّه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾[1] .

وهذا المنهج صالح لكل زمان ومكان ، ولكل أمة ولكل فرد .

يقابل هذا ، أنّه ما من فرد أو أمة تترك هذا المنهج إلا وتشقى فى الدنيا والآخرة ، وما الشقاء الذى تعيشه الأمم والأفراد الآن إلا بسبب إعراضها عن منهج الله عز وجل : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[2] .

لمّا كان المدعوون لا يستجيبون بسهولة لداعى الله عز وجل ، فعلى الداعية أن يستخدم كل الأساليب والوسائل المتاحة لدعوة ذلك القطيع الضال ويدخل فى ذلك تذكير المدعوين بالنعم التى أنعمها الله عليهم . نتعلم ذلك الأسلوب من هود عليه السلام الذى ذكر قومه عاد بنعم الله عليهم :

﴿ واتقوا الذّى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون . إنِّى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[3] .

وكذلك صالح عليه السلام :

﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾[4] . وهنا تبدو نصيحة قيمة يقدمها الرسول لقومه ، وهى عدم الاستجابة للشياطين ، شياطين الإنس الذين يدعون إلى جهنم ، سواء عن طريق الإذاعة المرئية أو المسموعة أو الكلمة المقروءة إلى غير ذلك من وسائل الإفساد الشيطانية .

---

(١) نوح : ١٠ .
(٢) طه : ١٢٤ .
(٣) الشعراء : ١٣٢ .
(٤) الشعراء : ١٥٢ .

وهنا تظهر أيضا ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولهذا أهمية كبيرة فى المجتمع المسلم ، وهو سمت بارز فى الدولة والمجتمع المسلم يوضح ذلك حديث رسول الله محمد ﷺ : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على من فوقهم فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »(١) .

والمجتمع المسلم يوظف كلّ إمكانياته فى الدعوة إلى الله ؛ يعلمنا رب العزة ذلك من خلال عرض سيرة سليمان عليه السلام ؛ فسليمان عليه السلام حينما علم أن هنالك شرك بالله يزاول على أرض الجزيرة العربية على الفور وجه أحد جنوده برسالة إلى ملكة سبأ ، يدعوها وقومها للكفر بالطاغوت والإيمان بالله رب العالمين : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾(٢) ، وحينما حاولت الملكة مراوغته أعلن سليمان عليه السلام حالة النفير العام ، وهدد القوم بتسيير جيوش التوحيد ﴿ اذهب إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾(٣) .

فلمثل هذا الأمر تعد الجيوش ، إنها لا تعد لقهر الأمم والشعوب ، أو لتكريس الظلم أو حماية الأشخاص ولكن تعد لنصرة دين الله عز وجل . وهذا درس لأصحاب الدعوات ، أن الدعوة إلى الله واجبة فى حق الحاكم والمحكوم ، وأنه من واجب الحاكم المسلم أن يجيش الجيوش ويعد القوة المانعة لحماية الدولة الإسلامية ولكى تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها . فتهديد سليمان عليه السلام بتحريك الجيوش حدث لأنه كانت هنالك أمة تزاول انشرك بالله ، وتخضع

---

(١) رواه البخارى عن النعمان بن بشير . القائم فى حدود الله معناه : المنكر لها القائم فى دفعها وإزالتها والمراد بالحدود ما نهى الله عنه ، واستهموا : اقترعوا .

(٢) النمل : ٣١ .

(٣) النمل : ٣٧ .

حياتها لغير نظام الله وشرعه على أرض الجزيرة العربية ، ولم يحركها لمدّ حدود دولته أو لتحقيق زعامته ولكنه حركها لنصرة دين الله ، ولكى تكون كلمة الله هى العليا .

بالإضافة إلى ما سبق نلاحظ أن سليمان عليه السلام ، حينما علم أن القوَم قد قرروا الدخول فى دين الله ، استخدم العلم الذى علمه الله إياه لإحضار عرش ملكة سبأ ، ولتنكيره لها ، وتمريد الصرح ، حتى يقهر أنفس المدعوين ولكى يبرهن لهم أن التمكين الذى مكن الله لهم به فى الأرض لا يقاس إلى التمكين الربانى لسليمان النبى المسلم ولذلك نرى ملكة سبأ تعلن : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

نموذج آخر لمسلم يوظّف التمكين الذى تحقق له فى الدعوة إلى دين الله عز وجل . إنه الغلام فى حادثة أصحاب الأخدود : لقد كان يبرىء الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس الملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى قال إنّى لا أشفى أحداً إنما يشفى الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه .

إن الغلام لم يوظف هذه النعمة فى جمع المال ، وإنما استخدمها للدعوة إلى دين الله ، لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان . وهكذا يجب أن يفعل الدعاة إلى دين الله عز وجل وكل من مكن الله له فى الأرض بأى نوع من التمكين . تماماً كما فعل الراهب الذى وظف علمه فى الدعوة إلى دين الله .

وفى حادثة أصحاب الأخدود يتعلم المرء أيضا كيف يجود بنفسه لنصرة دين الله عز وجل ، لأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ .

الصراع بين الحق والباطل نتائجه محددة :

النصر أو الشهادة للمؤمنين الموحدين ، وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة للمكذبين المعاندين مثلما حدث لهود عليه السلام وقومه :

﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منّا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾[1] والنجاة هنا للمؤمنين تحققت برحمة الله عز وجل .

وما حدث لصالح عليه السلام وقومه :

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[2] :

وعذاب الله إذا نزل بقوم ، لا يمكن أن يحميهم منه أحدٌ أو شيء لا المال ، ولا القوات ، ولا الأعوان ، ولا الحصون : ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ ؛ ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[3] .

لقد أهلك الله قوم هود الكافرين بالريح الصرصر العاتية التى سخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما ؛ وأهلك قوم صالح الكافرين بالصيحة فأصبحوا كهشيم المحتظر ، وأهلك قوم شعيب بعذاب يوم الظلة إنّه كان عذاب يوم أليم ، وأهلك آخر ملوك الحميريين بتسليط الأحباش عليهم فأسقطوا دولتهم ، وشتتوا ملكهم ، واحتلوا بلادهم ، كما أهلك الأحباش بالطير الأبابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل .

– إن الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء ، فهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا شيء يخرج عن دائرة علمه ، وكل شيء فى قبضته ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[4] ﴿ وسع ربنا كل شيء علما ﴾ .

---

(١) الأعراف : ٧٢ .

(٢) هود : ٦٧ .

(٣) الحجر : ٨٠ – ٨٤ .

(٤) هود

– إن الله سبحانه وتعالى قد بين أن لعنته « أى الإبعاد من رحمة الله عز وجل » تنزل فى الدنيا والآخرة بمن :

« جحدوا آياته ، وعصوا رسله » ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾[1]

– إن عصيان الله عز وجل والتمرد على أوامره وشرعه تؤدى إلى الخسران :

﴿ فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير ﴾[2] .

– إن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن جنده ، ويتركهم للأعداء يتآمرون عليهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، كما أنه سبحانه وتعالى خير الماكرين ، والذين يمكرون بالصف المسلم جزاؤهم التدمير فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

فحينما تآمر قوم صالح على قتله وأهله ، وتقاسموا على ذلك ، ماذا كانت النتيجة ؟ يقول الله عز وجل :

﴿ ومكروا مكراً ، ومكرنا مكراً ، وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[3] .

– وعصرنا يموج بأمثلة تفوق الحصر ، خير شاهد على هذه الحقيقة ، فما أكثر المتآمرين على الصف المسلم ، وما أكثر تخطيطهم للخلاص من كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، فلا ينزعج المسلمون لهذا التخطيط البشرى ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا ، والله موهن كيد الكافرين ، وليعلموا أنهم فى حفظ الله ورعايته ، وأن الله محيط بأعدائهم .

وذلك يعنى أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾[4] .

---

(١) هود : ٥٩ .

(٢) هود : ٦٣ .

(٣) النمل : ٥٣ .

(٤) الحج : ٤٤ .

– إن الله سبحانه وتعالى هو الذى حمى بيته الحرام وحرمه الآمن من عبث العابثين وهو قادر على حمايته فى كل زمان .

– إن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ وإن لم يستجب الناس لدعوة الله عز وجل استبدلهم الله بأقوام غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم ، وهذا ما بينه هود عليه السلام لقومه : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربّى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾(١) .

تعامل قدر الله مع الناس حينما تجيئهم الرسالة فيكذبون :

هنالك سنة إلهية فى تعامل قدر الله مع الناس حينما تجيئهم الرسالة فيكذبون إذ يأخذهم الله أولا بالضراء والبأساء لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب ، فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء وهو أشد فتنة من البأس ، حتى تلتبس عليهم سنة الله ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون :

﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾(٢) .

كيف يعامل الدعاة الناس ؟ كيف يمضون بدعوتهم ؟ كيف يستعينون على متاعب الطريق :

كيف يكظمون الغضب وهم يعانون من نفوس الناس وكيدهم ؟ كيف يذكرون ربهم ويبقون موصولين به ؟ .

لقد بين الله سبحانه وتعالى لأصحاب الدعوات ، كل ذلك ، وهو يحكى

---

(١) هود : ٥٧ .
(٢) الأعراف : ٩٤ – ٩٥ .

لهم أخبار الرسل ، والأنبياء عليهم السلام ، فى كتاب الله الكريم ، سواء عن طريق الخطاب المباشر للنبى محمد ﷺ ، أو عن طريق التعقيب على أخبار الرسل عليهم السلام .

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين .. وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم .. إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .. وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون .. وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل إنّما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى .. هذا بصائر من ربكم ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .. وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .. واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدُو والأصال ولا تكن من الغافلين ، إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه وله يسجدون ﴾[1] .

وعالمنا المعاصر يموج بنماذج مكررة لقوم عاد الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا من أشد منا قوة :

فهناك الكثير من الأمم التى أنعم الله عليهم بالجنات والعيون والزروع والأموال والأولاد والعلم والتمكين بكل صوره المادية ، فى الجو والبر والبحر ، وقد كان ذلك كفيلا برد هذه الأمم إلى الله عز وجل ، ولكنهم فتنوا ، وتصوروا كما تصور قارون أنهم قد أوتوا ذلك كل على علم عندهم . ونسوا أن الوهاب والمنعم هو الله عز وجل ، وأنه من الواجب عليهم عبادته حق العبادة ، وإفراده وحده بالتوحيد الخالص .

إن هذه الأمم تملك كل مقومات التمكين المادى ، ولكنها ارتكست فى حمأة الشرك ، وانطلقت تعيث فى الأرض فساداً ، بسبب عدم عقلها ، وإجرامها ، وحرصها على الجحود بآيات الله وعصيان أوامره ، واتباع أوامر الطواغيت .

هذه الأمم غالبها يكفر بالله عز وجل ، ويكذّبون بلقاء الآخرة ، ويعيشون

---

(١) الأعراف : ١٩٩ - ٢٠٦ .

حياة مترفة ، ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإسلام وقفة شرسة ، يستخدمون فيها كل إمكانياتهم المادية والعلمية لصرف الناس عن هذا الإسلام ، عن طريق التشكيك فى كونه نظاماً صالحاً لكل زمان ومكان ، وعن طريق تشويه سمعة أصحاب الدعوات ، ومحاولة النيل منهم ، بكل الطرق ، بل ومحاولة قتلهم ، وإلقائهم فى السجون والمعتقلات بلا ذنب أو جريمة ، بل وتدبير التهم الباطلة لهم ولأتباعهم ، مع حرمانهم من وظائفهم ، والتضييق عليهم فى أعمالهم .

هذه الأمم المعاصرة ، ومنهم من كان ينتسب فى يوم من الأيام إلى الإسلام ، تحرص ، حرص عاد وثمود ومدين وغيرهم ، بل أشد من هذا الحرص نلمحه فى التآمر على الإسلام وأهله ؛ يدخل فى ذلك منع مساجد الله أن يذكر فيها اسم الله ، والسعى فى خرابها .

يدخل فى ذلك مسخ برامج التعليم الدينى ، لتربية أجيال لا تعرف لها ربّا ولا ترتضى لها دينا .

يدخل فى ذلك إشاعة الفاحشة وتزيينها للناس داخل المجتمعات ، عن طريق فتح النوادى الليلية والمختلطة ، وعن طريق فتح الحانات ، وإباحة المسكرات ، وعن طريق الكلمة المقروءة والمسموعة . ويدخل فى ذلك إشاعة الأدب العارى ، وعن طريق الإذاعة المرئية والمسموعة .

ولم تقف جرائم هذه الأمم عند هذا الحدّ بل تعدتها إلى غزو الشعوب الآمنة فى عقر دارها ، واغتصاب أموالها وأولادها وأوطانها ، بل واغتصاب رجالها ونسائها وأطفالها ، وما حدث على امتداد رقعة الوطن الإسلامى خير شاهد على ما نقول .

إن هذه الأمم التى تكرس الظلم وتُقَنِّنه ، لتصد عن سبيل الله من آمن تبغيها عوجا ، بدلا من أن تصرف نعم الله عز وجل فى مصارفها المشروعة ، نجد أنها تستخدمها فى التدمير والتخريب . لقد تعطلت أجهزة الإدراك لديها ، فما عادت تنكر منكراً أو تأمر بمعروف ، بل إنها لم تستفد بما وقع للأمم السابقة .

فإذا نظرنا إلى هذه الأمم فى ضوء السنن الربانية ، سوف نصل إلى نتيجة

مؤكدة ، وهى أن عقاب الله عز وجل لابد وأن ينزل بهذه الأمم ، لأنها مرقت من دين الله عز وجل ، سوف نصل إلى نتيجة مؤكدة ، أن التدمير والعذاب سوف يحيق بهذه الأمم جزاء نكولها عن حمل الأمانة التى كلفها الله بها ، إذ لم تسرع بالتوبة والاستغفار والعودة إلى الله عودة حقيقية ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

فلا يغتر مُغْتَرّ ، ولا يتصور إنسان أن الله عز وجل قد خلق الأمم وتركها يظلم بعضها بعضاً ، أو يبغى بعضها على بعض ، أو تُفسد فى الأرض نتيجة شركها بالله عز وجل ، وعدم استسلامها له سبحانه وتعالى ، دون أن يعاقبها كما عاقب غيرها من الأمم السابقة ، حاشا لله أن يحدث هذا ، حاشا لله أن تتعطل سنة من سننه الربانية ، ولكن لكل شيء أجل ، وموعد معلوم لا يتجاوزونه ، ولكن الله لا يعجل لعجلة أحد .

﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾(١) .

وأن الكافرين عليهم ألا يأمنوا على أنفسهم لأن عذاب الله قد ينزل بهم فى آية لحظة .

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾(١) .

* * *

---

(١) الأنبياء : ٣٧ .

الوثائـــق
مـــن
القرآن والسنة وكتب التفسير

سيرة هود عليه السلام

من القرآن الكريم :

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا . إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين ﴾ .

هـــود[1] :

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا

---

(١) الأعراف آية (٦٥ - ٧٢) .

(٢) هود آية (٥٠ - ٦٠) .

ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيء حفيظ ، ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ .

المؤمنــون[1] :

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ، قال رب انصرنى بما كذبون ، قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ، ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تترا كلَّ ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ .

---

(١) المؤمنون آية (٣١ - ٤٤) .

الشعـراء[1] :

﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

فصلـت[2] :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ .

الأحقـاف[3] :

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون ، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ،

---

(١) ١٢٣ - ١٤٠ .
(٢) ١٥ - ١٦ .
(٣) ٢١ - ٢٦ .

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

الذاريات[1] :

﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .

القمر[2] :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ﴾ .

كتب التفسير والحديث :

أورد أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى معلومات عن هود وقومه عاد نقتطف منها :

١ - « وعاد » ، هؤلاء القوم الذين وصف الله صفتهم ، وبعث إليهم هودا يدعوهم إلى توحيد الله ، واتباع ما أتاهم به من عنده .

٢ - « حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق . ولد عاد بن أرم بن عوص بن سالم بن نوح ، وكانت مساكنهم الشحر ، من أرض اليمن وعاد إلى بلاد حضرموت إلى عمان (١٤٨٠١) » .

٣ - « حدثنى محمد بن الحسين قال ، حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى : أن عادا قوم كانوا باليمن ، بالأحقاف (١٤٨٠٢) » .

---

(١) ٤١ - ٤٢ .
(٢) ١٧ - ٢١

٤ – « حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى ، عن أبى الطفيل عامر بن وائلة قال : سمعت عليا (ابن أبى طالب) يقول لرجل من حضر موت . هل رأيت كثيبا أحمراً تخالطه مدرة حمراء . ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه! قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه ، فقال الحضرمى : وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال : فيه قبر هود صلوات الله عليه[1] (١٤٨٠٣) .

٥ – (١٤٨٠٤) – حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق قال كانت منازل عاد وجماعتهم ، حين بعث الله فيهم هودا ، **الأحقاف** . قال : والأحقاف الرمل ، فيما بين عمان إلى حضر موت ، فاليمن كله وكانوا مع ذلك قد **فشوا فى الأرض كلها ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى أتاهم الله** ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له « صداء » وصنم يقال له « صمود » ، وصنم يقال له « الهباء » . فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم . نسبا ، وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الإله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك ، فأبوا : ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ ! .. واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له « مرثد بن سعد بن عفير » وكان يكتم إيمانه ، فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم ، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (سورة الشعراء : ١٢٨ – ١٣١) .

﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ . ﴿ قال إنى أشهد الله

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ – ٣٧ هـ) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مصر ١٩٥٧ ، ج ١٢ ، ص ٥٠٣ وما بعهدها .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ .. إلى قوله : ﴿ صراط مستقيم ﴾ (سورة هود : ٥٣ – ٥٦) .

كما أورد الإمام الحافظ ابن كثير[١] :

رواية عن الطبرى عن محمد بن إسحاق ، قال فلما أبوا إلا الكفر بالله أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك ، قال وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهذة ابنة الخبيرى قال فبعثت عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان « قينتان لمعاوية » وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم
لعل الله يسقينـــا غمامـــا
فيسقى أرض عاد إن عادا
قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد ليس نرجو
به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير
فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش تأتيهم جهارا
ولا تخشى لعادى سهاما

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٦ – ١٢٩ .

وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم
نهاركم وليلكم تماما
فَقُبِّحَ وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأه الله سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب . فقال : اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا لا والد تترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا ، إلا بنى اللودية الهمدا ، قال وهو بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء ﴾ أى تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها هداد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا هداد ؟ قالت : ريحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها **وهو سياق غريب** فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى

وائل عن الحارث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى يا عبد الله إن لىَ إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغى إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المجلس غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال : فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شىء قلت : نعم وكانت لنا الدائرة عليهم .

ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فإنها كانت لنا . قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك . قال قلت : إن مثلى مثل ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى هبه « **وما وافد عاد ؟** » **هيه أعلم بالحديث منه ولكن يستعلمه قلت** : إن عاد قحطوا فبعثوا وفدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة فقال اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عادا ما كانت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا قال : فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد[1] .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس حدثنا ابن فضل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما فتح

---

(١) هكذا رواه أحمد فى السند . ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائى من حديث سلام بن أبى المنذر عن عاصمة بن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه (البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨) .

الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلمّا رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة »[1] .

روى مسلم فى صحيحه ، حدثنا أبو الطاهر بن وهب سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبى رباح عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به » قالت : وإذا عبَّبت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ » . روه الترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث جريج[1] .

---

(١) البداية ، والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٩ – ١٣٠ .

سيـرة صالـح عليـه السـلام

من القرآن الكريم :

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

هـــود[1] :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب . قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى

---

(١) ٧٣ – ٧٩ .

وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

الحجـــر(١) :

﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

الشعـــراء(٢) :

﴿ كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتتركون فى ما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

النمـــل(٣) :

﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان

---

(١) ٨٠ – ٨٤ .
(٢) ١٤١ – ١٥٩ .
(٣) ٤٥ – ٥٣ .

يختصمون . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون . قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

فصلت[1] :

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . وأنجيناالذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

الذاريات[2] :

﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ .

القمر[3] :

﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشر منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

---

(١) ١٧ - ١٨ .
(٢) ٤٣ - ٤٥ .
(٣) ٢٣ - ٣٢ .

الشمس(١) :

﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ﴾ .

الحاقة(٢) :

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

الفجر(٣) :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

العنكبوت(٤) :

﴿ وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ .

ص(٥) :

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من

---

(١) ١١ - ١٥ .
(٢) ٤ - ٨ .
(٣) ٦ - ١٤ .
(٤) ١١ - ١٧ .
(٥) ٣٨ .

فواق . وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ .

كتب التفسير والحديث :

الوثائق الدالة على أن رسالة صالح عليه السلام كانت إلى ثمود الذين كانوا يسكنون فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .

أورد محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره الروايات التالية التى تشمل أحاديث لرسول الله ﷺ ، عن قوم ثمود :

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » . وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس

« الصلاة جامعة » قال فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم ، نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك . رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا » لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءها يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله » فقالوا من هو يا رسول الله قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم ، إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما إذ ذاك فى الحرم فلم يصبه شىء فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله ، وقد تقدم فى أول القصة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال عبد الرزاق عن معمر : أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال : « أتدرون من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا قبر أبى رغال ، رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم فاتبدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق ، قال معمر ، قال الزهرى : أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد علّق الإمام حافظ ابن كثير على هذا الحديث بقوله : « وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكره لمكة ولم تبن مكة إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل . فنزلت جرهم عندهم . وعاد الأولى قبل الخليل ومعه ذكر معاوية بن بكر وشعره وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى لا يشبه كلام المتقدمين . وفيه أن فى تلك السحاب شر ونار وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر[1] .

هود وصالح يحجان البيت العتيق :

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لم مرّ النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال يا أبا بكر أى واد هذا . قال وادى عسفان قال : « لقد مرّ به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف إزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق »[2] . إسناده حسن .

* * *

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٣٨ .

سيرة شعيب عليه السلام

سورة الأعراف[1] :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ﴾ .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أولو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما - على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين

---

(١) ٨٥ - ٩٣ ، مدين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون . قال أبو زيد : مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهى أكبر من تبوك وبها البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٤١٧ - ٤١٨) ، انظر فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣١٦ - ١٣٢٢ .

كما أورد ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣١ أنهم من سلالة مدين بن إبراهيم ، ومدين تطلق على القبيلةَ وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز : قال تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ ، وهم أصحاب الأيكة ، انظر أيضا تفسير الطبرى ، ج ١٢ ، ص ٥٥٤ .

كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ ﴾ ...

هـــود(1) :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ، قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ، قالوا : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، قال : يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

الحـــج(2) :

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم

---

(1) ٨٤ - ٩٥ .
(2) ٤٢ - ٤٤ .

لوط ، وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ .

الشعـراء[1] :

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ، قالوا إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ، فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعملون ، فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

---

(١) ١٧٦ – ١٩١ .

أصحـــاب الأخـــدود

أولا : القرآن الكريم :

سورة البروج :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود وشاهدٍ ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد . إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير . إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعالٌ لما يريد . هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود . بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ .

كتب التفسير :

تبدأ سورة البروج بقسم : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود .. ﴾ فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه .. تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل .. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد ٦ ، ص ٣٨٧١ – ٣٨٧٦ .

الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذى يشرف الإنسان فى أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة ، وما يمكن فيها من بغى وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : ﴿ النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ ..

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة فى شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيمانى الأصيل .

إشارة إلى ملك الله فى السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع فى السموات والأرض : ﴿ الله الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شيء شهيد ﴾ ...

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة . وإلى نعيم الجنة ... ذلك الفوز الكبير .. الذى ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة ، وارتفعوا على فتنة النار والحريق : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير ﴾ .

وتلويح ببطش الله الشديد ، الذى يبدىء ويعيد : ﴿ إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ .. وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث إشعاعات بعيدة .. .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا .. .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح ! .

﴿ ذو العرش المجيد . فعال لما يريد ﴾ .. وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة .. وكلها ذات اتصال بالحادث .. كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة وهم مدججون بالسلاح .. ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ؟ ﴾ وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما ووراءهما – مع حادث الأخدود – إشعاعات كثيرة .

وفى الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون . ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط ﴾ .. .

يقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ .. مما يوحى بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، فى كل الأمور .

هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ﴾ .. .

نبدأ السورة – قبل الإشارة إلى حادث الأخدود – بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهى إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أى قصورها المبنية ، كما قال : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ .. وكما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ﴾ .. وإما أن تكون هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء . والإشارة إليها يوحى بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه فى هذا الجو .

﴿ واليوم الموعود ﴾ .. وهو يوم الفصل فى أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئة ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ، وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع إليه الخلائق ، وتترقبه لترى كيف تصير الأمور .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ .. فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال . وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين .. ويعلم كل شىء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون ...

وتلتقى السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود .. تلتقى جميعا فى إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذى يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود .. كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه ... وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود .. .

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هذا المجال ، تجىء الإشارة إلى الحادث فى لمسات قلائل :

﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد ﴾ .. .

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ .. وهى كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجىء تفسير الأخدود : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ والأخدود : الشق فى الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا . فصارت النار بدلا فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم ، ويزاولون تلك الجريمة : ﴿ إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ .. وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب . وفعل النا

فى الأجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع ! .

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض . والله على كل شيء شهيد ﴾ .. فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على ما يَريد ، الحميد : المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له ، وهو وحده الذى له ملك السموات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور . ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود .. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا ، وكفى بالله شهيدا .

وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ماوراءه .

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم . وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب .. يعقب به السياق .. .

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير ﴾ .. .

إن الذى حدث فى الأرض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عند الله :

﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ .. ومضوا فى ضلالتهم سادرين . لم يندموا على ما فعلوا ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ .. ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ . وينص على ﴿ الحريق ﴾ .. وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود . وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد ، لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم ! .

ويتمثل رضا الله وإنعامه . على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .. وهذه هى النجاة الحقيقية : ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ .. والفوز : النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟ .

بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . وهى الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه فى الأرض إلا طرفا من أطرافه ، لا يتم به تمامه .. وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

ثم تتوالى التعقيبات ..

﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .. وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب ما مر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش

الجبار . الذى له ملك السموات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة فى رقعة من الزمان محدودة .. .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب – وهو الرسول ﷺ – والقائل وهو الله عز وجل وهو يقول له : ﴿ إن بطش ربك .. ﴾ ربك الذى تنتسب إلى ربوبيته ، وسندك الذى تركن إلى معونته .. ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين ! .

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ .. والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة .. إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدءوإنشاء، وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر .. وفى بلى مستمر .. وفى ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة فى واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء .. فى هذه الحركة الدائبة الدائرة .. .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ .. والمغفرة تتصل بقوله من قبل : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ .. فهى من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهى الباب المفتوح الذى لا يغلق فى وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية .. أما الود .. فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه .. فماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟ .

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أو لمحة رضاء تبدو فى وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله ، الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان

الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز ، فى سبيل لمحة رضا يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد .. .

﴿ فعال لما يريد ﴾ .. هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل .. فعال لما يريد .. فهو مطلق الإرادة ، يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريده ويختاره ، دائما أبدا ، فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها .. يريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود .. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، فى قدره المرسوم .. .

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتى من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها فى الوجود .

﴿ فعال لما يريد ﴾ .. وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

﴿ هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ ﴾ . وهى إشارة إلى قصتين طويلتين ، ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين ، بعدما ورد ذكرهما كثيرا فى القرآن الكريم – ويسميهم الجنود – إشارة إلى قوتهم واستعدادهم .. هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟ .

وهما حديثان مختلفان فى طبيعتهما وفى نتائجهما .. فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بنى إسرائيل ، ومكن لهم فى الأض فترة ، ليحقق بهم قدرا من قدره ، وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هى مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الإرادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة ، إلى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث

الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة . ولكل جيل من أجيال المؤمنين .

وفى الختام يجىء إيقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير :

﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾ .. .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحون . ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ .. وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم ! .

﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ .. .

والمجيد الرفيع الكريم العريق .. وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذى يلقيه التعبير ، والإيحاء الذى يتركه فى القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، فى كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ .. .

ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه .. وهو القول الأخير .. .

ثانيا : الحديث الشريف وكتب التراث :

١ – عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك . إنى قد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى

---

(١) رواه مسلم ، انظر مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ ، المكتب الإسلامى دمشق ١٣٩٧ هـ ، ص ٥٥٦ حديث ٢٠٩٣ .

الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ، ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت لا تدل على . وكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى قال إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه ، كما كان يجلس فقال له الملك : من رد عليك بصرك . قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجىء بالغلام فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمة والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله عز وجل فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجىء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مقدمة رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه — فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال : اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل أصحابك . فقال : كفانيهم الله . فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو قال تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى

كبد القوس ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، ثم ارمنى فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى . فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : « بسم الله رب الغلام » ثم رماه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام . فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قال : والله قد نزل بك حذرك ، قد آمن الناس فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدَّت وأضْرَمَ النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : « يا أماه اصبرى فإنك على الحق »[1] .

٢ – وقد أورد بن كثير[2] روايات أخرى تشير إلى أن دين الغلام كان الإسلام . وقد أورد محمد بن إسحاق بن يسار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر فيها مخالفة لما تقدم فقال حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى : وحدثنى أيضا بعض أهل نجران عن أهلها أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران – ونجران هى القرية العظمى التى إليها يجتمع أهل تلك البلاد – ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزل فيمون ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : نزلها رجل فابتنى خيمة من بنى نجران وبنى تلك القرية التى فيها الساحر وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر ليعلمهم السحر فبعث ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاحه فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم . فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه ... واستجمع أهل نجران على دين عبد الله الثامر وكان على ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام من الإنجيل وحكمه .

وكما أورد ابن كثير رواية تشير إلى أن قاتل الموحدين هو ذو نواس .

---

(١) كذا رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى والترمذى .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٩١ – ٤٩٧ .

وقال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى ، ومعه أهل نجران عن عبد الله الثامر فالله أعلم أى ذلك كان فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل فحفر الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى ماتوا قريبا من عشرين ألفا ففى ذى نواس وجنده أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾[1] .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم وكتب التفسير ومنها :

جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تأليف أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٢ هـ .

* تفسير القرآن العظيم ، تأليف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير .

* فى ظلال القرآن ، تأليف سيد قطب ، دار الشروق - بيروت .

* كتب الصحاح فى حديث رسول الله ﷺ ؛ ومنها :

* صحيح أبى عبد الله البخارى ، مطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة .

* صحيح مسلم .

- مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى سلامة المنذرى ، تحقيق الألبانى ، المكتب الإسلامى .

* رياض الصالحين .

* اقتضاء الصراط المستقيم . مخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام ابن تيميه ، مطابع المجد التجارية ، المملكة العربية السعودية .

* علوم الحديث ومصطلحاته . تأليف د . صبحى الصالح .

* البداية والنهاية ، تأليف الإمام الحافظ إسماعيل .

* فى التاريخ فكرة ومنهاج تأليف سيد قطب .

* **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** ، ج ١ ، ج ٢ ، تأليف د . محمد محمد حسين ط ٣ ، بيروت .

* **تاريخ الرسل والملوك** ، تأليف أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، دار المعارف ، القاهرة (يجب أن تخضع رواياته للجرح والتعديل قبل الاعتماد عليها) .

* **معجم البلدان** ، تأليف ياقوت الحموى (يجب الاستيثاق من رواياته) .

مراجع يجب أن تخضع للجرح والتعديل :

* **الموسوعة** العربية الميسرة ، قام بتأليفها مجموعة من أساتذة الجامعات ، وأشرف على إعدادها د. محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٥ (تحوى معلومات خاطئة عن تاريخ الرسل والأنبياء) .

* **دائرة** معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدى ، مطبعة الشعب ، القاهرة (تورد معلومات تشكك فى القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ) .

* **دراسات** تاريخية من القرآن الكريم فى بلاد العرب ، تأليف د. محمد بيومى مهران ،الرياض (يورد معلومات خاطئة عن دين الله وعن أنبياء الله وأخبارهم اعتمادا على التوراة المزيفة)[١] .

* **دائرة** المعارف الإسلامية ، قام بتأليفها مجموعة من المستشرقين (تحوى قدحا وتشويها مباشرا وغير مباشر لدين الإسلام ورسله عليهم السلام ورجاله) .

* **موسوعة** التاريخ والحضارة الإسلامية ، تأليف د. أحمد شلبى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧ م .

* **سياسة** الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، تأليف د. حسن صبرى

---

(١) انظر التفصيل فى رسالتنا ، أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ . المنهج الإسلامى للتاريخ ، لماذا ؟ وكيف ؟ تأليف د . جمال عبد الهادى .

الخولى (وهو يعتبر إبراهيم وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام يهوداً ، ويزعم أن لليهود حق فى أرض فلسطين) .

● مراجع لا يجوز الاعتماد عليها لأنها تحوى معلومات خاطئة عن بعض أحداث التاريخ الإسلامى وهى تردد فى أحوال كثيرة أقوال المستشرقين المعادية للإسلام :

* **تاريخ** العرب قبل الإسلام ، تأليف د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة .

* **تاريخ** العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، تأليف محمد مبروك نافع ، القاهرة .

* **محاضرات** فى تاريخ العرب ، تأليف د. صالح أحمد العلى ، جـ ١ ، بغداد ١٩٦٠ .

● مراجع لا يجوز الاعتماد عليها نظرا لأنها تحوى معلومات خاطئة وأكاذيب لا حصر لها عن التاريخ الإسلامى، بل إنها تطعن الإسلام طعنات نجلاء:

* **الدعوة** إلى الإسلام ، تأليف توماس أرنولد ، وترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة .

* **الحضارات** السامية القديمة ، تأليف س. موسكاتى ، وترجمة د. السيد يعقوب بكر ، القاهرة .

* **تاريخ** العرب المطول ، تأليف فيليب حتّى ، الجامعة الأمريكية ، بيروت .

* **تاريخ** العرب العام ، تأليف سيديو وترجمة عادل زعيتر ، القاهرة .

* **تطور** الفكر والدين تأليف جيمس هنرى برستيد وترجمة زكى سوس ، القاهرة .

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، المنهج الإسلامى لماذا ؟ وكيف ، تأليف د . جمال عبد الهادى .

* **حضارة** العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، وترجمة عادل زعيتر ، القاهرة .

* **سليمان** الحكيم ، تأليف توفيق الحكيم (وقع الكتاب فى حرمة الاعتداء على النبوة ، ونبى الله سليمان عليه السلام ، وعلى دين الله عز وجل) .

* **قصة** الحضارة ، تأليف ول. ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، إدارة التأليف والنشر جامعة الدول العربية ، القاهرة .

المحتويات

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الأول

المصادر والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة وكتابة أخبار القرون الأولى من حياة الجزيرة العربية

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

أصحاب الأخدود فى القرآن الكريم وحديث النبى محمد ﷺ

الفصل الخامس

أصحاب الأخدود

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٢٢ / ٨٦

الترقيم الدولى ٦ ـ ٥٢ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

التاريخ :

ب ؟

م ، وتاريخ

.

نية - ثلاثة

رها وحتى

ة المسلمة

(١٢٩٩-

لسلمة :

ونون أول

المسلم).

رسول إلى

المنصورة
ص . ب ٢٣٠
س ٣٥٩٧٧٨